

الْبَابُ الْاَوَّلُ من الكتاب الاول في عمران لبشرى على الجملة وفيه مقدمات المقدمة الاولى

في أَنَّ الاجْتِمَاعَ الْإِنْسَانِيَّ ضَرُورِيٌّ. وَيُعَيَّرُ الْحُكَمَاءُ عَنْ هَذَا يَقُولُهُمْ: «الْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ»، أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْاجْتِمَاعِ الَّذِي هُوَ الْمَدَنِيَّةُ فِي اضْطِلَاحِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى الْعُمَرَانِ وَتَبَيَّاهُ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصِحُّ حَيَاتُهَا وَتَقَاوُهَا إِلَّا بِالْغِذَاءِ، وَهَدَاهُ إِلَى التَّمَاثِيهِ بِفِطْرَتِهِ، وَبِمَا رَكَّبَ فِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَحْصِيلِهِ. إِلَّا أَنَّ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ قَاصِرَةٌ عَنْ تَحْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الْغِذَاءِ، غَيْرُ مَوْفِيَةٍ لَهُ بِمَادَّةِ حَيَاتِهِ مِنْهُ. وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَقَلُّ مَا يُمَكِّنُ فَرْضُهُ وَهُوَ قُوَّةُ يَوْمٍ مِنَ الْجَنْطَةِ مَثَلًا، فَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِعِلَاجٍ كَثِيرٍ مِنَ: الطَّخِنِ وَالْعَجْنِ وَالطَّبَخِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ يَخْتَاجُ إِلَى مَوَاعِينٍ^(١) وَالْآلِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِصِنَاعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ حَدَّادٍ وَنَجَّارٍ وَفَاخُورِيٍّ. هَبْ أَنَّهُ يَأْكُلُهُ حَبًّا مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ، فَهُوَ أَيْضًا يَخْتَاجُ فِي تَحْصِيلِهِ حَبًّا إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ، مِنَ الزَّرَاعَةِ وَالْحَصَادِ وَالذَّرَاسِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنْ غِلَافِ السُّنْبُلِ. وَيَخْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ إِلَى آلِائِ مُتَعَدِّدَةٍ وَصَنَائِعٍ كَثِيرَةٍ أَكْثَرَ مِنَ الْأُولَى بِكَثِيرٍ. وَيَسْتَحِيلُ أَنْ تَوْفِيَ بِذَلِكَ كُلَّهُ أَوْ يَبْغِضَهُ قُدْرَةُ الْوَاحِدِ. فَلَا بُدَّ مِنَ اجْتِمَاعِ الْقُدْرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَتْبَاءِ جَنْسِهِ لِيَحْصُلَ الْقُوَّةُ لَهُ وَلَهُمْ؛ فَيَحْصُلُ بِالتَّعَاوُنِ قَدْرُ الْكِفَايَةِ مِنَ الْحَاجَةِ لِأَكْثَرِ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ. وَكَذَلِكَ يَخْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَيْضًا فِي الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الْاسْتِعَانَةِ بِأَتْبَاءِ جَنْسِهِ. لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكَّبَ الطَّبَاعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا، وَقَسَمَ الْقُدْرَ يَتَنَهَا جَعَلَ حُظُوظَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مِنَ الْقُدْرَةِ أَكْمَلَ مِنْ حَظِّ الْإِنْسَانِ؛ فَقُدْرَةُ الْفَرَسِ مَثَلًا أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ وَكَذَا قُدْرَةُ الْجَمَارِ وَالثَّوْرِ؛ وَقُدْرَةُ الْأَسَدِ وَالْفِيلِ أَضْعَافٌ مِنْ قُدْرَتِهِ. وَلَمَّا كَانَ الْعُدَاؤُ طَبِيعِيًّا فِي الْحَيَوَانِ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عُضْوًا

(١) مَوَاعِينُ : مَفْرَدُهَا مَاعُونٌ وَهُوَ الرِّعَاءُ .

يَخْتَصُّ بِمُدَافَعَتِهِ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةِ غَيْرِهِ. وَجَعَلَ لِلْإِنْسَانِ عَوْضًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الْفِكْرَ وَالْيَدَ. فَالْيَدُ مُهَيَّئَةٌ لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ؛ وَالصَّنَائِعُ تُحْصَلُ لَهُ الْآلَاتُ الَّتِي تَنْتُجُ عَنْهَا الْجَوَارِحُ الْمُعَدَّةُ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدَّفَاعِ: مِثْلَ الرِّمَاحِ الَّتِي تَنْتُجُ عَنْ الْقُرُونِ النَّاطِقَةِ؛ وَالسُّيُوفِ النَّائِيَةِ عَنِ الْمَخَالِبِ الْجَارِحَةِ، وَالتَّرَاسِ النَّائِيَةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ^(١)؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ^(٢) فِي كِتَابِ «مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ». فَالوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لَا تَقَاوُمُ قُدْرَتُهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ سِوَمَا الْمُفْتَرَسَةِ؛ فَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ مُدَافَعَتِهَا وَخَدِّهَا بِالْجُمْلَةِ؛ وَلَا تَنفِي قُدْرَتُهُ أَيْضًا بِاسْتِعْمَالِ الْآلَاتِ الْمُعَدَّةِ لِلْمُدَافَعَةِ لِكَثْرَتِهَا وَكَثْرَةِ الصَّنَائِعِ وَالْمَوَاعِينِ الْمُعَدَّةِ لَهَا فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَثْنَاءِ جَنْسِهِ. وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ فَلَا يَخْصُلُ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا غِذَاءٌ، وَلَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ؛ لِمَا رَكَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ؛ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا دِفَاعٌ عَنْ نَفْسِهِ لِفَقْدَانِ السِّلَاحِ فَيَكُونُ فَرِيسَةً لِلْحَيَوَانَاتِ، وَيُعَاجِلُهُ الْهَلَاكُ عَنْ مَدَى حَيَاتِهِ، وَيَبْطُلُ نَوْعُ الْبَشَرِ. وَإِذَا كَانَ التَّعَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ لِلْغِذَاءِ وَالسِّلَاحِ لِلْمُدَافَعَةِ، وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي بَقَائِهِ وَحِفْظِ نَوْعِهِ. فَإِذَنْ هَذَا الْاجْتِمَاعُ ضَرُورِيٌّ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ؛ وَإِلَّا لَمْ يَكْمُلْ وُجُودُهُمْ وَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنَ اغْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ وَاسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُمْ؛ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعُمَرَانِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَوْضُوعًا لِهَذَا الْعِلْمِ.

وَفِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعُ اثْبَاتٍ لِلْمَوْضُوعِ فِي فَتَاهِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ. وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَى صَاحِبِ الْفَرْقِ، لِمَا تَقَرَّرَ فِي الصَّنَاعَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ عِلْمٍ اثْبَاتُ الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ؛ فَلَيْسَ أَيْضًا مِنَ الْمَمْنُوعَاتِ عِنْدَهُمْ؛ فَيَكُونُ اثْبَاتُهُ مِنَ التَّبَرُّعَاتِ، وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ بِفَضْلِهِ.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْاجْتِمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَتَمَّ عُمَرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَازِعٍ يَدْفَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ؛ لِمَا فِي طَبَاعِهِمُ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ. وَلَيْسَتْ أَلَّةُ السِّلَاحِ الَّتِي جُعِلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَنْهُمْ كَافِيَةً فِي دَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهُمْ لِأَنَّهَا مُوجُودَةٌ لِجَمِيعِهِمْ. فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ. وَلَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَإِلْهَامَاتِهِمْ. فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَازِعُ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِمُ الْعَلَبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ؛ حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى غَيْرِهِ بِعُدْوَانٍ؛ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمُلْكِ.

(١) الجاسية : القاسية والصلبة .

(٢) جالينوس : عالم وطبيب مشهور من أطباء اليونان .

وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ بِهَذَا أَنَّهُ خَاصَّةٌ لِلْإِنْسَانِ طَبِيعِيَّةٌ وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا. وَقَدْ يَوْجَدُ فِي بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْحُكَمَاءُ كَمَا فِي النَّحْلِ وَالْجَرَادِ لَمَّا اسْتَقَرَّ فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْإِنْقِيَادِ وَالْإِتِّبَاعِ لِرَأْسٍ مِنْ أَشْخَاصِهَا مُتَمَيِّزٍ عَنْهُمْ فِي حُلُقِهِ وَجُثْمَانِهِ؛ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَالْهِدَايَةِ لَا بِمُقْتَضَى الْفِكْرَةِ وَالسِّيَاسَةِ: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

وَتَزِيدُ الْفَلَاسِيفَةُ عَلَى هَذَا الْبُوهَانِ حَيْثُ يُحَاوِلُونَ إِثْبَاتَ الثُّبُوتِ بِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ، وَأَنَّهَا خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ، فَيَقْرَرُونَ هَذَا الْبُوهَانَ إِلَى غَايَتِهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ الْحُكْمِ الْوَازِعِ، ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذَلِكَ: وَذَلِكَ الْحُكْمُ يَكُونُ بِشَرَعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَأْتِي بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ؛ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يَدْعُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصِّ هِدَايَتِهِ لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ مِنْهُ، حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلَا تَرْذِيفٍ. وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكَمَاءِ غَيْرُ بُوهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ؛ إِذِ الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ تَتِمُّ مِنْ دُونِ ذَلِكَ بِمَا يَفْرُضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ، أَوْ بِالْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَتِهِ. فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَجُوسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ الدُّوَلُ وَالْآثَارُ فَضْلًا عَنِ الْحَيَاةِ؛ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ فِي الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ. بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِعٍ لَهُمُ الْبَيِّنَةُ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ. وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلْطُهُمْ فِي وُجُوبِ الثُّبُوتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِيٍّ وَإِنَّمَا مَذَرَكُهُ الشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ مِنَ الْأُمَّةِ. وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ.



المقدمة الثانية

في قسط لعمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من إجمار والأنهار والأقاليم

اعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ التَّائِيَرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ كُرْوِيٌّ وَأَنَّهَا مَخْفُوفَةٌ بِغُنْصُرِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ. فَانْحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَائِبِهَا، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَغُمْرَانِهَا بِالنُّوعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَهُ الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا. وَقَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ؛ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا التَّحْتُ الطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسْطُ كُرَّتِهَا الَّذِي هُوَ مَوْكُزُهَا، وَالْكُلُّ يَطْلُبُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّقَلِ؛ وَمَا عدا ذلك من جَوَائِبِهَا. وَأَمَّا الْمَاءُ الْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ. وَإِنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَبِالإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ. وَأَمَّا الَّذِي انْحَسَرَ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النُّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَّتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةِ أَحَاطَ الْغُنْصُرُ الْمَائِيُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَحْرًا يُسَمَّى الْبَحْرُ الْمُحِيطُ، وَيُسَمَّى أَيْضًا لِبَلَايَةِ يَتَفَخِّمِ اللَّامُ الثَّانِيَّةِ، وَيُسَمَّى أَوْفَيَانُوسَ، أَسْمَاءُ أَعْجَمِيَّةٌ، وَيُقَالُ لَهُ الْبَحْرُ الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ. ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُتَكَشِّفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْغُمْرَانِ فِيهِ الْقِفَارُ وَالْخَلَاءُ أَكْثَرُ مِنْ غُمْرَانِهِ وَالْخَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ؛ وَإِنَّمَا الْمَغْمُورُ مِنْهُ قِطْعَةٌ أَثْمِيلُ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحٍ كُرْوِيٍّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَى خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ، وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى خَطِّ كُرْوِيٍّ وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ الْغُنْصُرِيِّ الَّذِي يَنْتَهِي سَدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ. وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ. وَيَنْتَهِي مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى غُنْصُرِ الْمَاءِ أَيْضًا بِقِطْعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ. وَهَذَا الْمُتَكَشِّفُ مِنَ الْأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ النُّصْفِ مِنَ الْكُرَّةِ أَوْ أَقَلُّ؛ وَالْمَغْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ؛ وَهُوَ الْمُتَقَسِّمُ بِالْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ. وَخَطُّ الْاِسْتِوَاءِ يَقْسِمُ الْأَرْضَ بَيْنَ صَفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ، وَهُوَ طَوْلُ الْأَرْضِ وَأَكْبَرُ خَطِّ فِي كُرَّتِهَا؛ كَمَا أَنَّ مِنْطَقَةَ فَلَكِ الْبُرُوجِ وَدَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ أَكْبَرُ خَطِّ فِي الْفَلَكَ. وَمِنْطَقَةُ الْبُرُوجِ مُتَقَسِّمَةٌ بِثَلَاثِمِائَةِ وَسِتِّينَ دَرَجَةً، وَالدَّرَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ الْأَرْضِ خَمْسَةَ وَعِشْرُونَ فَرْسَخًا، وَالْفَرْسَخُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ ذِرَاعٍ فِي ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ، لِأَنَّ الْمِيلَ أَرْبَعَةُ أَلْفِ ذِرَاعٍ، وَالذِّرَاعُ أَرْبَعَةُ

وَعَشْرُونَ إِصْبَعًا، وَإِصْبَعٌ سِتُّ حَبَّاتٍ شَعِيرٍ مَصْفُوفَةٍ مُلَصَّقٍ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهَرًا لِبَطْنٍ. وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ الَّتِي تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَتُسَامِتُ^(١) حَظَّ الْاِسْتِواءِ مِنَ الْأَرْضِ، وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً. لَكِنَّ الْعِمَارَةَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ حَظِّ الْاِسْتِواءِ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَالْبَاقِي مِنْهَا خَلَاءٌ لَا عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ الْبُزْدِ وَالْجُمُودِ، كَمَا كَانَتْ الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خَلَاءً كُلُّهَا لِشِدَّةِ الْحَرِّ كَمَا نُبَيِّنُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ثُمَّ إِنْ الْمُخْبِرِينَ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ وَالْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْقَفَارِ وَالرَّمَالِ مِثْلُ: بَطْلِيمُوسَ فِي «كِتَابِ الْجُغَرَاْفِيَا»، وَصَاحِبِ كِتَابِ «رُوحَارِ» مِنْ بَعْدِهِ، فَسَمَوْا هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ يُسَمُّونَهَا الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِحُدُودٍ وَهَيْئَةٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٍ فِي الْعَرْضِ مُخْتَلِفَةٍ فِي الطُّولِ؛ فَالْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ أَطْوَلُ مِمَّا بَعْدَهُ وَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهَا؛ فَيَكُونُ السَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا أَقْتَضَاهُ وَضَعُ الدَّائِرَةِ النَّاشِئَةِ مِنَ انْحِسَارِ الْمَاءِ عَنْ كُرَةِ الْأَرْضِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ عِنْدَهُمْ مُنْقَسِمٌ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ عَلَى التَّوَالِي. وَفِي كُلِّ جُزْءٍ الْخَبْرُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ عُمْرَانِهِ.

البحار :

وَذَكَّرُوا أَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الْمُحِيطَ يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ الْمَعْرُوفُ^(٢). وَيَبْدَأُ فِي خَلِيجٍ مُتَضَائِقٍ فِي عَرْضِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا أَوْ نَحْوِهَا مَا بَيْنَ طَنْجَةِ وَطَرِيفَ وَيُسَمَّى الرُّقَاقِ؛ ثُمَّ يَذْهَبُ مُشْرِقًا وَيَنْفَسِحُ إِلَى عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ. وَنَهَائِيَّتُهُ فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عَلَى أَلْفِ فَرْسَخٍ وَمِائَةِ وَسِتِّينَ فَرْسَخًا مِنْ مَبْدِئِهِ؛ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ سَوَاحِلُ الشَّامِ. وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ سَوَاحِلُ الْمَغْرِبِ، أَوَّلُهَا طَنْجَةُ عِنْدَ الْخَلِيجِ، ثُمَّ إِفْرِيقِيَّةُ، ثُمَّ بَرْقَةُ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ. وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ سَوَاحِلُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ عِنْدَ الْخَلِيجِ، ثُمَّ الْبَنَادِقَةُ، ثُمَّ رُومَةُ، ثُمَّ الْإِفْرِنجَةُ ثُمَّ الْأَنْجُلُسُ إِلَى طَرِيفَ عِنْدَ الرُّقَاقِ قِبَالَ طَنْجَةِ، وَيُسَمَّى هَذَا الْبَحْرُ الرُّومِيُّ وَالشَّامِيُّ؛ وَفِيهِ جُزُرٌ كَثِيرَةٌ عَامَرَةٌ كِبَارٌ مِثْلُ: أَقْرِيطُسَ وَقُبْرُصَ وَصِيفَلِيَّةَ وَمُيُورْقَةَ وَسِرْدَانِيَّةَ وَدَانِيَّةَ.

قَالُوا: وَيَخْرُجُ مِنْهُ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ بَحْرَانِ آخَرَانِ مِنْ خَلِيجَيْنِ. أَحَدُهُمَا مُسَامِتٌ لِلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، يَبْدَأُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُتَضَائِقًا فِي عَرْضِ رَمِيَةِ الشَّهْمِ، وَيَمُرُّ ثَلَاثَةَ بَحَارٍ: فَيَتَّصِلُ

(١) تسامت: توازي . (٢) البحر الرومي : البحر الأبيض المتوسط .

بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ثُمَّ يَنْفَسِحُ فِي عَرْضِ أَرْبَعَةِ أُمِّيَالٍ، وَيَمُرُّ فِي جَزِيرِهِ سِتِينَ مِيلًا، وَيُسَمَّى خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ؛ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ فُوهَةٍ عَرْضُهَا سِتُّ أُمِّيَالٍ، فَيَمِيدُ بَحْرَ نِيَطِشٍ^(١)؛ وَهُوَ بَحْرٌ يَنْحَرِفُ مِنْ هُنَالِكَ فِي مَذْهَبِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِأَرْضِ هِرَقْلِيَّةٍ، وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الْخَزَرِّيَّةِ عَلَى أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةِ مِيلٍ مِنْ فُوهَتِهِ، وَعَلَيْهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ أُمَّمٌ مِنَ الرُّومِ وَالثُّرُكِ وَبُزْجَانَ وَالتُّرُوسِ. وَالبَحْرُ الثَّانِي مِنْ خَلِيجِي هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَهُوَ بَحْرُ الْبَنَادِقَةِ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى سَمْتِ الْجَبَلِ انْحَرَفَ فِي سَمْتِ الْمَغْرِبِ إِلَى بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ، وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ إِنْكِلَايَّةٍ عَلَى أَلْفٍ وَمِائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدِئِهِ. وَعَلَى حَاقَّتَيْهِ مِنَ الْبَنَادِقَةِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ أُمَّمٌ، وَيُسَمَّى خَلِيجُ الْبَنَادِقَةِ.

قالوا: وَيَنْسَاحُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْمُحِيطِ أَيْضًا مِنَ الشَّرْقِ وَعَلَى ثَلَاثِ عَشْرَةَ دَرَجَةً فِي الشَّمَالِ مِنْ خَطِّ الاسْتِواءِ بَحْرٌ عَظِيمٌ مُتَّسِعٌ يَمُرُّ إِلَى الْجَنُوبِ قَلِيلًا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ يَمُرُّ فِيهِ مُغْرَبًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالزَّنْجِ، وَإِلَى بِلَادِ الْمَنْدَبِ مِنْهُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ فَوْسَخٍ وَخَمْسَمِائَةِ فَوْسَخٍ مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى الْبَحْرُ الصِّينِي وَالْهِنْدِيُّ وَالْحَبَشِيُّ. وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ بِلَادُ الزَّنْجِ وَبِلَادُ بَرْبَرِ التِّي ذَكَرَهَا أَمْرُ الْقَيْسِ فِي شِعْرِهِ، وَلَيْسُوا مِنَ الْبَرْبَرِ الَّذِينَ هُمْ قَبَائِلُ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ بَلَدُ مَقْدَشُو، ثُمَّ بَلَدُ سُفَالَةَ، وَأَرْضُ الْوَاقِ^(٢) وَأُمَّمٌ أُخَرُ لَيْسَ بَعْدَهُمْ إِلَّا الْقَفَارُ وَالْخَلَاءُ. وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ الصِّينُ مِنْ عِنْدِ مَبْدِئِهِ ثُمَّ الْهِنْدُ ثُمَّ السُّنْدُ؛ ثُمَّ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ مِنَ الْأَخْفَافِ وَزَيْدٍ وَغَيْرِهَا؛ ثُمَّ بِلَادُ الزَّنْجِ عِنْدَ نَهَائِهِ وَبَعْدَهُمُ الْحَبَشَةُ.

قالوا: وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْحَبَشِيُّ بَخْرَانِ آخَرَانِ أَحَدُهُمَا يَخْرُجُ مِنْ نَهَائِهِ عِنْدَ بَابِ الْمَنْدَبِ فَيَبِيدُ مُتَضَافًا، ثُمَّ يَمُرُّ مُسْتَبْجِرًا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَمُغْرَبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى مَدِينَةِ الْقَلْزُومِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدِئِهِ؛ وَيُسَمَّى بَحْرُ الْقَلْزُومِ^(٣) وَبَحْرُ السُّوَيْسِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ فُسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَالِكَ ثَلَاثُ مَرَاجِلَ. وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ ثُمَّ الْحِجَازُ وَجُدَّةٌ، ثُمَّ مَدْيَنُ وَأَيْلَةُ وَفَارَانُ عِنْدَ نَهَائِهِ؛ وَمِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ سَوَاحِلُ الصَّعِيدِ وَعَيْثَابُ وَسَوَاكِنُ وَزَيْلَعُ، ثُمَّ بِلَادُ الْحَبَشَةِ عِنْدَ مَبْدِئِهِ، وَآخِرُهُ عِنْدَ الْقَلْزُومِ يُسَامِئُ الْبَحْرَ الرُّومِيَّ عِنْدَ الْعَرِيشِ وَيَنْتَهِي نَحْوَ سِتِّ مَرَاجِلَ. وَمَا زَالَ الْمُلُوكُ فِي

(٢) أي بلاد الهند الصينية .

(١) بحر نيطش : البحر الأسود .

(٣) بحر القلزم : أطلق على البحر الأحمر .

الإسلام وقبلة يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك. والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي، ويسمى الخليج الأخضر^(١)، يخرج ما بين بلاد السند والأخفاف من اليمن ويمر إلى ناحية الشمال مغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى الأبلّة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الإقليم الثاني على أربع مائة فوسخ وأربعين فوسخاً من مبدئه ويسمى بحر فارس. وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس، والأبلّة عند نهايته؛ ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر، والأخفاف عند مبدئه. وفيما بين بحر فارس والفلزم جزيرة العرب كأنها داخلّة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب، وبحر فارس من الشرق؛ وتفضي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما. وهنالك الكوفة والقادسيّة وبغداد وإيوان كسرى والحيرة. ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم. وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها، وبلاد اليمامة والبحرين وعمان جهة الشرق منها، وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها، وسواحلها على البحر الحبشي.

قالوا: وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جوجان وطبرستان، طوله ألف ميل في عرض ست مائة ميل في غربيّه أذربيجان والديلم، وفي شرقيّه أرض الترك وخوارزم، وفي جنوبيّه طبرستان، وفي شماليّه أرض الخزر واللات.

هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا.

الأنهار:

قالوا: وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي: النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون.

فأما النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بسبب عشرة درجّة على سمت الجزء الرابع من الإقليم الأول ويسمى جبل القمر، ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هناك، وبعضها في أخرى؛ ثم تخرج أنهار من البحيرتين، فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل.

(١) الخليج الأخضر: الخليج العربي.

وَيَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ نَهْرَانِ. يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ عَلَى سَمْتِهِ، وَيَمُرُّ بِلِلَادِ الثُّوبَةِ ثُمَّ بِلِلَادِ مِصْرَ، فَإِذَا جَاوَزَهَا تَشَعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَقَارِبَةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَلِيجًا، وَتَصُوبُ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَيُسَمَّى نَيْلَ مِصْرَ، وَعَلَيْهِ الصَّعِيدُ مِنَ شَرْقِيَّهِ، وَالْوَاحاتُ مِنْ غَرْبِيَّهِ. وَيَذْهَبُ الْآخَرُ مُنْعَطِفًا إِلَى الْمَغْرِبِ، ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُوبَ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَهُوَ نَهْرُ السُّودَانِ وَأُمَمُهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى صِفَتِيَّهِ.

وَأَمَّا الْفُرَاتُ فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ، وَيَمُرُّ جَنُوبًا فِي أَرْضِ الرُّومِ وَمَلَطِيَّةٍ إِلَى مَنبَجٍ ثُمَّ يَمُرُّ بِصِفَيْنَ ثُمَّ بِالرُّقَّةِ، ثُمَّ بِالْكُوفَةِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطْحَاءِ الَّتِي بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَوَاسِطِ، وَمِنْ هُنَاكَ يَصُوبُ فِي الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ، وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهَا أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُوبُ فِي دِجْلَةَ.

وَأَمَّا دِجْلَةُ فَمَبْدُؤُهُ عِنْدَ بِلَادِ خِلَاطٍ مِنْ أَرْمِينِيَّةٍ أَيْضًا، وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْجَنُوبِ بِالْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِيجَانَ وَبَغْدَادَ إِلَى وَاسِطِ، فَتَفْتَرِقُ إِلَى خُلُجَانٍ كُلُّهَا تَصُوبُ فِي بُحِيرَةِ الْبَصْرَةِ، وَتَقْضِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ؛ وَهُوَ فِي الشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ الْفُرَاتِ. وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. وَفِيمَا بَيْنَ الْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ مِنْ أَوَّلِهِ جَزِيرَةُ الْمَوْصِلِ قِبَالَ الشَّامِ مِنْ غُدُوتَي الْفُرَاتِ، وَقِبَالَ أَذْرَبِيجَانَ مِنْ غُدُوتِ دِجْلَةَ.

وَأَمَّا نَهْرُ جِيحُونَ فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بَلْعٍ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الثَّالِثِ مِنْ عُيُونِ هُنَاكَ كَثِيرَةٍ؛ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عَظَامٌ؛ وَيَذْهَبُ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّامِ فَيَمُرُّ بِلِلَادِ خُرَاسَانَ؛ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خُوارِزْمَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ؛ فَيَصُوبُ فِي بُحِيرَةِ الْجُوجَانِيَّةِ الَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا، وَهِيَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ فِي مِثْلِهِ، وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرَّغَانَةَ وَالشَّاشِ الْآتِي مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ. وَعَلَى غَرْبِي نَهْرُ جِيحُونَ بِلَادُ خُرَاسَانَ وَخُوارِزْمَ، وَعَلَى شَرْقِيَّهِ بِلَادُ بُخَارَى وَتَرِيزْمَدَ وَسَمَرْقَنْدَ؛ وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادُ التُّرْكِ وَفَرَّغَانَةَ وَالْخَزَرَجِيَّةَ وَأَمَمِ الْأَعَاجِمِ.

وقد ذكر ذلك كُلَّهُ بَطْلِيمُوسُ فِي كِتَابِهِ وَالشَّرِيفُ فِي كِتَابِ «رُوحِار»، وَصَوَّرُوا فِي الْجُغَرافِيَا جَمِيعَ مَا فِي الْمَعْمُورِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَوْدِيَةِ، وَاشْتَوْفُوا مِنْ ذَلِكَ مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطَوْلِهِ، وَلَأَنَّ عِنَايَتَنَا فِي الْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ وَطَنُ الْبَزْرِ وَبِلَادُ الْوُطَانِ الَّتِي لِلْمَغْرِبِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَاللَّهُ الْمُوقِفُ.

تمهلة لهذه المقدمة الثانية

في أن الربع لشمالي من الأرض أكثر عمراناً
من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمْرَانًا مِمَّا بَعْدَهُمَا، وَمَا وَجَدَ مِنْ عُمْرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ وَالرَّمَالُ، وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا. وَأَمَّمْ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأَنَاسِيَهُمَا لَيْسَتْ لَهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ، وَأَمْنَصَارُهُ وَمُدْنُهُ كَذَلِكَ. وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذَلِكَ. فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ، وَالرَّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ؛ وَأَمَمُّهَا وَأَنَاسِيُّهَا تَجُوزُ الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ؛ وَأَمْنَصَارُهَا وَمُدْنُهَا تُجَاوِزُ الْحَدَّ عَدَدًا؛ وَالْعُمْرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ، وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ. وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَقَلَّةِ مِثْلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ. فَلَنُوضِحْ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ، لِيَتَبَيَّنَ مِنْهُ سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيهَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ فَتَقُولُ:

إِنَّ قُطْبِي الْفَلَكَ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأُفْقِ، فَهَنَالِكَ دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَآرَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَتُسَمَّى دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ. وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يُحَرِّكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاقِ الَّتِي فِي جَوْفِهِ قَهْرًا، وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ مَحْسُوسَةٌ. وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا حَرَكَةً مُخَالَفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ، وَتَخْتَلِفُ أَمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي الشَّرْعَةِ وَالْبُطْءِ. وَمَمَرَاتُ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا تُوَازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى تَقْسِمُهُ بِنِصْفَيْنِ، وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكِ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِأَثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا، وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ، هُمَا: أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ، فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ: نِصْفٍ مَائِلٍ عَنِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ؛ وَنِصْفٍ مَائِلٍ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحَوِثِ. وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى الْأُفْقِ فِي

جميع نواحي الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يساميت دائرة مُعَدِّلِ النَّهَارِ، يَمُرُّ من المَغْرِبِ إلى المَشْرِقِ وَيُسَمَّى خَطَّ الاسْتِواءِ. وَوَقَعَ هذا الخَطُّ بِالرَّصْدِ على ما زَعَمُوا في مَبْدَأِ الإقْلِيمِ الأوَّلِ مِنَ الأَقْلِيمِ السَّبعةِ، والعُمُرَانُ كُلُّهُ في الجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ عنه. وَالْقُطْبُ الشَّمَالِي يُرْتَفِعُ عن آفَاقِ هَذَا المَعْمُورِ بِالتَّدْرِيجِ إلى أَنْ يَنْتَهِيَ ارْتِفَاعُهُ إلى أَرْبَعِ وَسِتِّينَ دَرَجَةً؛ وَهُنَالِكَ يَنْقَطِعُ العُمُرَانُ وَهُوَ آخِرُ الإقْلِيمِ السَّابعِ. وَإِذَا ارْتَفَعَ على الأفقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ الَّتِي يَبْنِي الْقُطْبُ وَدَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ صَارَ الْقُطْبُ على سَمْتِ الرُّؤُوسِ وَصَارَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ على الأفقِ، وَبَقِيَتْ سِتَّةٌ مِنَ البُرُوجِ فَوْقَ الأفقِ وَهِيَ الشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّةٌ تَحْتَ الأفقِ وَهِيَ الجَنُوبِيَّةُ. وَالْعِمَارَةُ فيما بَيْنَ الأَرْبَعَةِ وَالسَّتِّينَ إلى التَّسْعِينَ مُنْتَبِعَةٌ؛ لِأَنَّ الحَرَّ وَالبَرْدَ حِينَئِذٍ لَا يَخْضُلَانِ مُمْتَرِجِينَ لِإِعْدِ الزَّمَانِ بَيْنَهُمَا، فَلَا يَحْصُلُ التَّكْوِينُ. فَإِذَا الشَّمْسُ تُسَامِتُ الرُّؤُوسَ على خَطِّ الاسْتِواءِ في رَأْسِ الحَمَلِ وَالمِيزَانِ، ثُمَّ تَمِيلُ عَنِ المُسَامَتَةِ إلى رَأْسِ السَّرْطَانِ وَرَأْسِ الجُذْيِ، وَيَكُونُ نِهَائُهُ مِيلَهَا عَنِ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً. ثُمَّ إِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ الشَّمَالِي عَنِ الأفقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَنِ سَمْتِ الرُّؤُوسِ بِمِقْدَارِ ارْتِفَاعِهِ، وَانْخَفَضَ الْقُطْبُ الجَنُوبِيُّ كَذَلِكَ بِمِقْدَارِ مُتَسَاوٍ فِي الثَّلَاثَةِ، وَهُوَ المُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ المَوَاقِيتِ عَرَضَ البَلَدِ. وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَنِ سَمْتِ الرُّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا البُرُوجُ الشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرِجَةً فِي مِقْدَارِ غُلُوبِهَا إلى رَأْسِ السَّرْطَانِ، وَانْخَفَضَتِ البُرُوجُ الجَنُوبِيَّةُ مِنَ الأفقِ كَذَلِكَ إلى رَأْسِ الجُذْيِ لِانْجِرَافِهَا إلى الجَانِبَيْنِ فِي أَفْقِ الاسْتِواءِ كَمَا قُلْنَا. فَلَا يَزَالُ الأفقُ الشَّمَالِي يُرْتَفِعُ حَتَّى يَصِيرَ أَبْعَدَ الشَّمَالِيَّةِ وَهُوَ رَأْسُ السَّرْطَانِ فِي سَمْتِ الرُّؤُوسِ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرَضُ البَلَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ فِي الحِجَازِ وَمَا يَلِيهِ. وَهَذَا هُوَ المِئَلُ الَّذِي إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرْطَانِ عَنِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ فِي أَفْقِ الاسْتِواءِ ارْتَفَعَ بِارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِي حَتَّى صَارَ مُسَامِتًا. فَإِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ وَعِشْرِينَ نَزَلَتِ الشَّمْسُ عَنِ المُسَامَتَةِ، وَلَا تَزَالُ فِي انْخِفَاضٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ ارْتِفَاعُ الْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِّينَ، وَيَكُونُ انْخِفَاضُ الشَّمْسِ عَنِ المُسَامَتَةِ كَذَلِكَ وَانْخِفَاضُ الْقُطْبِ الجَنُوبِيِّ عَنِ الأفقِ مِثْلُهَا؛ فَيَنْقَطِعُ التَّكْوِينُ لِإِفْرَاطِ البَرْدِ والجَمْدِ، وَطَوِيلِ زَمَانِهِ غَيْرِ مَمْتَرَجٍ بِالحَرِّ. ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ عِنْدَ المُسَامَتَةِ وَمَا يُقَارِبُهَا تَبَعَتْ الْأَشْيَعَةَ على الأرضِ على زَوَايا قَائِمَةٍ؛ وَفِيمَا دُونَ المُسَامَتَةِ على زَوَايا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ. وَإِذَا كَانَتْ زَوَايا الْأَشْيَعَةِ قَائِمَةً عَظُمَ الصُّوءُ وَانْتَشَرَ بِخِلَافِهِ فِي المُنْفَرِجَةِ وَالحَادَّةِ. فَلِهَذَا يَكُونُ الحَرُّ عِنْدَ المُسَامَتَةِ وَمَا يُقَرِّبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدَ؛ لِأَنَّ الصُّوءَ سَبَبُ الحَرِّ وَالتَّشْحِينِ.

ثم إنَّ المُسامَنةَ في حَظِّ الاستِواءِ تُكوِّنُ مَرَّتَيْنِ في السَّنَةِ عند نُقْطَتَي الحَمَلِ والمِيزَانِ؛ وإذا مالَتْ فَغَيَّرَ بَعِيدٌ. ولا يَكادُ الحَرُّ يَغْتَدِلُ في آخِرِ مِثْلِهَا عند رَأْسِ السَّرَطَانِ والجَدِّي إِلَّا إنَّ صَعِدَتْ إلى المُسامَنةَ، فَتَبْقَى الأشِعةُ القَائِمةُ الزَّوايا تُلِجُ على ذلك الأفقِ، وَيَطُولُ مَكْثُهَا أو يَدُومُ، فَيَشْتَعِلُ الهَوَاءُ حَرَارَةً، وَيُفْرِطُ في شِدَّتِهَا. وكذا ما دَامَتِ الشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فيما بَعْدَ حَظِّ الاستِواءِ إلى عَرَضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ، فَإِنَّ الأشِعةَ مُلِحَّةٌ على الأفقِ في ذلك بَقَرِيبٍ من إلحَاحِهَا في حَظِّ الاستِواءِ وإفراطِ الحَرِّ يَفْعَلُ في الهَوَاءِ تَجْفِيفًا وَيَنْشَأُ يَمْنَعُ مِنَ التَّكْوِينِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ الحَرُّ جَفَّتِ المِياهُ والرُّطوبَاتُ وَفَسَدَ التَّكْوِينُ في المَعْدِنِ والحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ؛ إِذِ التَّكْوِينُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّطوبَةِ. ثم إِذَا مالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عن سَمِيتِ الرُّؤُوسِ في عَرَضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ، فما بَعْدَهُ، نَزَلَتِ الشَّمْسُ عن المُسامَنةِ فَيَصِيرُ الحَرُّ إلى الاغْتِدَالِ أو يَمِيلُ عَنْهُ مِيلًا قَلِيلًا، فَيَكُونُ التَّكْوِينُ، وَيَتَزَايِدُ على التَّدْرِيجِ إلى أَنْ يَفْرِطَ البَرْدُ في شِدَّتِهِ لِقِلَّةِ الصُّوَّةِ، وَكَوْنِ الأشِعةِ مُنْفَرِجَةً الزَّوايا فَيَنْقُصَ التَّكْوِينُ وَيَفْسُدَ. إِلَّا أَنَّ فَسَادَ التَّكْوِينِ من جِهَةِ شِدَّةِ الحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ من جِهَةِ شِدَّةِ البَرْدِ؛ لِأَنَّ الحَرَّ أَسْرَعَ تَأْثِيرًا في التَّجْفِيفِ من تَأْثِيرِ البَرْدِ في الجَمْدِ. فَلِذَلِكَ كَانَ العُمُرَانِ في الإقْلِيمِ الأوَّلِ والثَّانِي قَلِيلًا؛ وفي الثَّالِثِ والرَّابِعِ والخَامِسِ مُتَوَسِّطًا لِاغْتِدَالِ الحَرِّ بِنُقْصَانِ الصُّوَّةِ؛ وفي السَّادِسِ والسَّابِعِ كَثِيرًا لِنُقْصَانِ الحَرِّ، وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ البَرْدِ لَا تُؤَثِّرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا في فَسَادِ التَّكْوِينِ كَمَا يَفْعَلُ الحَرُّ؛ إِذْ لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ الإفراطِ بِمَا يَغْرُضُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ اليبَسِ كما بَعْدَ السَّابِعِ. فَلِهَذَا كَانَ العُمُرَانِ في الرُّبْعِ الشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ومن هُنَا أَخَذَ الحُكَمَاءُ خَلَاءَ حَظِّ الاستِواءِ وما وَرَاءَهُ. وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالمُشَاهَدَةِ والأَخْبَارِ المُتَوَاتِرَةِ. فَكَيْفَ يَتِمُّ البُرْهَانُ على ذلك؟ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا امْتِنَاعَ العُمُرَانِ فِيهِ بِالكُلِّيَّةِ؛ إِنَّمَا أَذَاهُمُ البُرْهَانُ إلى أَنَّ فَسَادَ التَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ الحَرِّ، والعُمُرَانُ فِيهِ إِنَّمَا مُمْتَنِعٌ أَوْ مُمَكِّنٌ أَقَلِّيٍّ. وَهُوَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ حَظَّ الاستِواءِ الَّذِي وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمُرَانٌ كَمَا نُقِلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا. وَقَدْ زَعَمَ ابْنُ رُشْدٍ^(١) أَنَّ حَظَّ الاستِواءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي الْجَنُوبِ، بِمِثَالِيَّةٍ مَا وَرَاءَهُ فِي الشَّمَالِ، فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا عَمَرَ مِنْ هَذَا. وَالَّذِي قَالَهُ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ مِنْ جِهَةِ فَسَادِ التَّكْوِينِ؛ وَإِنَّمَا امْتَنَعَ فِيهَا وَرَاءَ حَظِّ الاستِواءِ فِي الْجَنُوبِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ العُنْصَرَ المَائِيَّ عَمَرَ وَجْهَ الأَرْضِ هُنَالِكَ إلى الحَدِّ الَّذِي كَانَ مُقَابِلَهُ مِنَ الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ قَابِلًا لِلتَّكْوِينِ؛ وَلَمَّا امْتَنَعَ

(١) هو: محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي، أبو الوليد: الفيلسوف من أهل قرطبة، صُفِّ ما يقرب من خمسين كتابًا، منها «فلسفة ابن رشد»، واتهمه خصومه بالزندقة والإلحاد، فنفي إلى مراکش، حيث مات سنة (٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م).

المُعْتَدِلُ لِعَلَبَةِ الْمَاءِ تَبَعُهُ مَا سِوَاهُ؛ لِأَنَّ الْعُمَرَانَ مُتَدَرِّجٌ وَيَأْخُذُ فِي التَّدرِجِ مِنْ جِهَةِ الْوُجُودِ لَا مِنْ جِهَةِ الْاِمْتِنَاعِ. وَأَمَّا الْقَوْلُ بِاِمْتِنَاعِهِ فِي خَطِّ الْاِسْتِواءِ فَيَزِدُّهُ الثَّقَلُ الْمُتَوَاتِرُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلْتَرَوْسُم بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ صُورَةَ الْجُغْرَافِيَا كَمَا رَسَمَهَا صَاحِبُ كِتَابِ رُوحِارِ ثُمَّ نَأْخُذُ فِي تَفْصِيلِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا... إلخ.

تفصيل الكلام على بلاد الجغرافيا

اعلم أَنَّ الْحُكَمَاءَ قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَلَى سَبْعَةِ أَقْسَامٍ مِنَ الشَّمالِ إِلَى الْجَنُوبِ، يُسَمُّونَ كُلَّ قِسْمٍ مِنْهَا إِقْلِيمًا. فَانْقَسَمَ الْمَعْمُورُ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهِ عَلَى هَذِهِ السَّبْعَةِ الْأَقْلِيمِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا آخِذٌ مِنَ الْقَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ عَلَى طَوْلِهِ. فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَارٌّ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ مَعَ خَطِّ الْاِسْتِواءِ بِحَدِّهِ مِنَ جِهَةِ الْجَنُوبِ، وَلَيْسَ وَرَاءَهُ هُنَالِكَ إِلَّا الْقِفَارُ وَالرَّمَالُ وَبَعْضُ عِمَارَةٍ إِنْ صَحَّتْ فَهِيَ كَلَا عِمَارَةٍ. وَيَلِيهِ مِنْ جِهَةِ شَمَالِيهِ الْإِقْلِيمُ الثَّانِي ثُمَّ الثَّلَاثُ كَذَلِكَ ثُمَّ الرَّابِعُ وَالْخَامِسُ وَالسَّادِسُ وَالسَّابِعُ وَهُوَ آخِرُ الْعُمَرَانِ مِنْ جِهَةِ الشَّمالِ. وَلَيْسَ وَرَاءَ السَّابِعِ إِلَّا الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ؛ كَالْحَالِ فِيمَا وَرَاءَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ. إِلَّا أَنَّ الْخَلَاءَ فِي جِهَةِ الشَّمْسِ عَنْ دَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ وَارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ عَنْ آفَاقِهَا. فَيَتَفَاوَتْ قَوْسُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ لِذَلِكَ. وَيَنْتَهِي طَوْلُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ، وَذَلِكَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ الْجَدِيِّ لِلَّيْلِ وَبِرَأْسِ الشَّرْطَانِ لِلنَّهَارِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ. وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي مِمَّا يَلِي الشَّمالَ؛ فَيَنْتَهِي طَوْلُ النَّهَارِ فِيهِ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ الشَّرْطَانِ وَهُوَ مُنْقَلِبُهَا الصَّيْفِيِّ إِلَى ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ وَنِصْفِ سَاعَةٍ. وَمِثْلُهُ أَطْوَلُ اللَّيْلِ عِنْدَ مُنْقَلِبِهَا الشِّتَوِيِّ بِرَأْسِ الْجَدِيِّ. وَيَبْقَى لِلْأَقْصَرِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَا يَبْقَى بَعْدَ الثَّلَاثِ عَشْرَةِ وَنِصْفِ مِنْ جُمْلَةِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ، السَّاعَاتِ الزَّمَانِيَّةِ لِمَجْمُوعِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهِيَ دَوْرَةُ الْفَلَكَ الْكَامِلَةُ. وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ مِمَّا يَلِي الشَّمالَ أَيْضًا يَنْتَهِيَانِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ؛ وَفِي آخِرِ الرَّابِعِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ وَنِصْفِ سَاعَةٍ؛ وَفِي آخِرِ الْخَامِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ؛ وَفِي آخِرِ السَّادِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ وَنِصْفِ؛ وَفِي آخِرِ السَّابِعِ إِلَى سِتِّ عَشْرَةِ سَاعَةٍ، وَهَنَالِكَ يَنْقَطِعُ الْعُمَرَانُ فَيَكُونُ تَفَاوُتُ هَذِهِ الْأَقْلِيمِ مِنَ الْأَطْوَلِ مِنْ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا بِنِصْفِ سَاعَةٍ لِكُلِّ إِقْلِيمٍ، يَتَزَايَدُ مِنْ أَوَّلِهِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ إِلَى آخِرِهِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمالِ، مُوزَّعَةً عَلَى أَجْزَاءِ هَذَا الْبُغْدِ. وَأَمَّا غَرْضُ الْبُلْدَانِ فِي هَذِهِ الْأَقْلِيمِ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بُعْدِ مَا بَيْنَ سَمْتِ رَأْسِ الْبَلَدِ وَدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ الَّذِي هُوَ سَمْتُ رَأْسِ

حَطُّ الاسْتِواءِ، وَبِمِثْلِهِ سِوَاءٌ يَنْخَفِضُ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ عَنْ أَفْقِ ذَلِكَ الْبَلَدِ، يَرْتَفِعُ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنْهُ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَبْعَادٍ مُتَسَاوِيَةٍ تُسَمَّى عَرْضُ الْبَلَدِ كَمَا مَرَّ ذَلِكَ قَبْلُ.

وَالْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى هَذِهِ الْجُغَرَايَا قَسَمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ فِي طَوْلِهِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ، وَيَذْكُرُونَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي الْمَسَالِكِ. وَنَحْنُ الْآنَ نَوْجِزُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَنَذْكُرُ مَشَاهِيرَ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا، وَنُحَاذِي بِذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ «نُزْهَةِ الْمُشْتَقِ» الَّذِي أَلْفَهُ الْعُلُوِّي الإِذْرِيْسِيُّ الْحَمُودِيُّ لِمَلِكِ صِغْلِيَّةَ مِنَ الْإِفْرَنْجِ وَهُوَ رُوحَارُ بْنُ رُوحَارَ عِنْدَمَا كَانَ نَارِلًا عَلَيْهِ بِصِغْلِيَّةَ بَعْدَ خُرُوجِ صِغْلِيَّةَ مِنْ إِمَارَةِ مَالِقَةَ. وَكَانَ تَأْلِيفُهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ. وَجَمَعَ لَهُ كُتُبًا جَمَّةً لِلْمَسْعُودِيِّ وَابْنِ خُرْدَاذِبَةِ وَالْحَوْقَلِيِّ وَالْقُدْرِيِّ وَابْنِ إِسْحَاقَ الْمُنْجَمِ وَبَطْلِيمُوسَ وَغَيْرِهِمْ. وَبَدَأَ مِنْهَا بِالْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا؛ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغْفِرُ لَنَا بِمَنْهُ وَفَضْلِهِ.

الإقليم الأول

وَفِيهِ مِنْ جِهَةِ غَرْبِهِ الْجَزَائِرُ الْخَالِدَاتُ الَّتِي مِنْهَا بَدَأَ بَطْلِيمُوسُ يَأْخُذُ أَطْوَالَ الْبِلَادِ. وَلَيْسَتْ فِي بَسِيطِ الْإِقْلِيمِ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ، جُزُرٌ مُتَكَثِّرَةٌ أَكْبَرُهَا وَأَشْهَرُهَا ثَلَاثٌ وَيُقَالُ إِنَّهَا مَعْمُورَةٌ. وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ سَفَائِنَ مِنَ الْإِفْرَنْجِ مَرَّتْ بِهَا فِي أَوَاسِطِ هَذِهِ الْمِائَةِ وَقَاتَلُوهُمْ فَغَنِمُوا مِنْهُمْ وَسَبَّوْا وَبَاعُوا بَعْضَ أُسَارِهِمْ بِسَوَاحِلِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى، وَصَارُوا إِلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ. فَلَمَّا تَعَلَّمُوا اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِ جَزَائِرِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَحْتَقِرُونَ الْأَرْضَ لِلزَّرَاعَةِ بِالْقُرُونِ، وَأَنَّ الْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْضِهِمْ، وَغَيْشُهُمْ مِنَ الشَّعِيرِ، وَمَاشِيَتُهُمْ الْمَعَزُ، وَقِتَالُهُمْ بِالْحِجَارَةِ يَزِمُونَهَا إِلَى خَلْفِ، وَعِبَادَتُهُمْ الشُّجُودَ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ، وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَلَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ. وَلَا يَوْقِفُ عَلَى مَكَانٍ هَذِهِ الْجَزَائِرِ إِلَّا بِالْعُثُورِ لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّ سَفَرَ الشُّفَنِ فِي الْبَحْرِ إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَاحِ، وَمَعْرِفَةُ جِهَاتِ مَهَابِهَا، وَإِلَى أَيْنَ يَوْصِلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الْاسْتِقَامَةِ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي فِي مَمَرٍ ذَلِكَ الْمَهَبِّ. وَإِذَا اخْتَلَفَ الْمَهَبُّ وَعَلِمَ حَيْثُ يَوْصِلُ عَلَى الْاسْتِقَامَةِ حُوْذِي بِهِ الْقَلْعُ مُحَازَاةً يَحْمِلُ السَّفِينَةَ بِهَا عَلَى قَوَانِينٍ فِي ذَلِكَ مُحَصِّلَةً عِنْدَ التَّوَاتُؤِ^(١) وَالْمَلَّاحِينَ الَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ الشُّفَنِ فِي الْبَحْرِ. وَالْبِلَادُ الَّتِي فِي حَافَاتِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَفِي

(١) التواتية : الملاحون بلغة الفراعنة القدماء.

عُدْوَتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ، وَفِي وَضْعِهَا فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا؛ وَمِهَابُ الرِّيَّاحِ وَمَمَرَاتُهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا مَرْسُومٌ مَعَهَا فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ وَيُسَمُّونَهَا الْكِتَابَ، وَعَلَيْهَا يَتَعَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ. وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ. فَلِذَلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ الشُّفُنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ مَرَأَى السَّوَاحِلِ فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا؛ مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوْ هَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأُبْحَرَةِ الْمُمَانِعَةِ لِلشُّفَنِ فِي مَسِيرِهَا؛ وَهِيَ لِئَعْدِهَا لَا تَذَرُكُهَا أَضْوَاءُ الشَّمْسِ الْمُتَعَكِّسَةُ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ فَتَحُلِّلُهَا. فَلِذَلِكَ عَسَرَ الْاهْتِدَاءُ إِلَيْهَا وَصَعِبَ الْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا.

وَأَمَّا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَّبُ النَّيْلِ الْآتِي مِنْ مَبْدَئِهِ عِنْدَ جَبَلِ الْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، وَيُسَمَّى: «نَيْلَ السُّودَانِ». وَيَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أُولَيْكَ. وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ مَدِينَةُ سَلَا وَتَكَرُّرُ وَغَانَةُ؛ وَكُلُّهَا لِهَذَا الْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكِ «مَالِي» مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ. وَإِلَى بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تُجَارُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى، وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِهَا بِلَادُ لَمْتُونَةَ وَسَائِرِ طَوَائِفِ الْمُتَلَمِّينَ، وَمَفَاوِزُ يَجُولُونَ فِيهَا. وَفِي جَنُوبِي هَذَا النَّيْلِ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ «لَمْلِمُ» وَهُمْ كُفَّارٌ، وَيَكْتَوُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاغِهِمْ؛ وَأَهْلُ غَانَةَ وَالتَّكُرُّورِ يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونَهُمْ وَيَسْبُونَهُمْ لِلتُّجَّارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَكُلُّهُمْ عَائَةٌ رَقِيقُهُمْ وَلَيْسَ وَرَاءَهُمْ فِي الْجَنُوبِ عُمَرَانٌ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنْاسِيٌّ أَقْرَبَ إِلَى الْحَيَوَانِ الْعُجْمِ مِنَ النَّاطِقِ، يَسْكُنُونَ الْفَيَافِي وَالْكُهُوفَ وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ وَالْحُبُوبَ غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ^(١)؛ وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ الْبَشَرِ. وَقَوَاكِهِ بِلَادِ السُّودَانِ كُلُّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلَ تَوَاتٍ وَتَكْدَرَارِينَ وَوَزْكَلَانَ. فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيمَا يُقَالُ مُلْكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ يُعْرَفُونَ بِبَنِي صَالِحٍ. وَقَالَ صَاحِبُ كِتَابِ رُوحِ الْجَارِ: إِنَّهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ؛ وَلَا يُعْرَفُ صَالِحُ هَذَا فِي وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ. وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَصَارَتْ غَانَةُ لِسُلْطَانِ «مَالِي».

وَفِي شَرْقِي هَذَا الْبَلَدِ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بَلَدٌ «كُوكُو» عَلَى نَهَرٍ يَنْبُعُ مِنْ بَعْضِ الْجِبَالِ هُنَالِكَ. وَيَمُرُّ مُغْرَبًا فَيَفُصُّ فِي رِمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي. وَكَانَ مُلْكُ كُوكُو قَائِمًا بِنَفْسِهِ، ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ «مَالِي» وَأَصْبَحَتْ فِي مَمْلَكَتِهِ، وَخَرِبَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ نَذَرُهَا عِنْدَ ذِكْرِ دَوْلَةِ «مَالِي» فِي مَحَلِّهَا مِنْ تَارِيخِ الْبَزْرِ. وَفِي جَنُوبِي بَلَدِ «كُوكُو»

(١) غير مهياة: أي غير مطبوخة.

بلاد كانت من أمم السودان. وبَعْدَهُمْ وَنَعَارَةَ عَلَى ضِفَّةِ النَّيْلِ من شماليه.

وفي شَرْقِيّ بِلَادِ وَنَعَارَةَ وَكَانَتْ بِلَادُ زَعَاوَةَ وَتَاجِرَةَ الْمُتَّصِلَةَ بِأَرْضِ الثَّوْبَةِ فِي الْجَزْءِ الرَّابِعِ من هذا الإقليم. وفيه يَمُرُّ نَيْلٌ مُضَرٌّ ذَاهِبًا من مَبْدِئِهِ عِنْدَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الشَّامِ. وَمَخْرُجُ هَذَا النَّيْلِ من جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي فَوْقَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً. وَاخْتَلَفُوا فِي ضَبْطِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ. فَضَبَطَهَا بَعْضُهُمْ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ لِشِدَّةِ يَبَاضِهِ وَكَثْرَةِ صَوْنِهِ. وَفِي كِتَابِ: «الْمُشْتَرِكِ» لِيَاقُوتٍ بَضَمِ الْقَافِ وَسُكُونِ الْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ من أَهْلِ الْهِنْدِ؛ وَكَذَا ضَبَطَهُ ابْنُ سَعِيدٍ. فَيَخْرُجُ من هَذَا الْجَبَلِ عَشْرُ غُيُوبٍ تَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا فِي بُحَيْرَةٍ؛ وَبَيْنَهُمَا سِتَّةُ أَفْيَالٍ. وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبُحَيْرَتَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي بَطِيحَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أَسْفَلِهَا جَبَلٌ مُعْتَرِضٌ يَشُقُّ الْبُحَيْرَةَ من نَاحِيَةِ الشَّامِ. وَيَنْقَسِمُ مَاؤُهَا بِقِسْمَيْنِ: فَيَمُرُّ الْعَرَبِيُّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ مُعَرَّبًا حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ؛ وَيَخْرُجُ الشَّرْقِيُّ مِنْهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّامِ عَلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالتَّوْبَةِ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا؛ وَيَنْقَسِمُ فِي أَعْلَى أَرْضِ مُضَرَ، فَيَصُبُّ ثَلَاثَةٌ من جُدَاوِلِهِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ الإسْكَندَرِيَّةِ وَرَشِيدٍ وَدَمِيَّاطٍ، وَيَصُبُّ وَاحِدٌ فِي بُحَيْرَةِ مَلِيحَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ فِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ بِلَادُ التَّوْبَةِ وَالْحَبَشَةِ وَبَعْضُ بِلَادِ الْوَحَاثِ إِلَى أَشْوَانَ. وَحَاضِرَةُ بِلَادِ التَّوْبَةِ مَدِينَةُ دَنْقَلَةَ، وَهِيَ فِي غَرْبِي هَذَا النَّيْلِ وَبَعْدَهَا غُلُوءَةٌ وَبِلَاقُ، وَبَعْدَهُمَا جَبَلُ الْجَنَادِلِ عَلَى سِتَّةِ مَرَاجِلَ من بِلَاقٍ فِي الشَّامِ، وَهُوَ جَبَلٌ عَالٍ من جِهَةِ مُضَرَ وَمُنْخَفِضٌ من جِهَةِ التَّوْبَةِ، فَيَنْفُذُ فِيهِ النَّيْلُ وَيَصُبُّ فِي مَهْوًى بَعِيدٍ صَبًّا هَائِلًا، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْلُكَهُ الْمَرَائِكِبُ؛ بَلْ يُحَوِّلُ الْوَسْطُ مِنَ مَرَائِكِبِ السُّودَانِ، فَيَحْمَلُ عَلَى الظَّهْرِ إِلَى بَلَدِ أَشْوَانَ قَاعِدَةَ الصَّعِيدِ؛ وَكَذَا وَسْطُ مَرَائِكِبِ الصَّعِيدِ إِلَى فَوْقِ الْجَنَادِلِ. وَبَيْنَ الْجَنَادِلِ وَأَشْوَانَ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرَحَلَةً. وَالْوَحَاثُ فِي غَرْبِهَا عُذُوةُ النَّيْلِ، وَهِيَ الْآنَ خَرَابٌ، وَبِهَا آثَارُ الْعِمَارَةِ الْقَدِيمَةِ.

وَفِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ الْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ الاسْتِوَاءِ ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ التَّوْبَةِ، فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي النَّيْلِ الْهَابِطِ إِلَى مُضَرَ. وَقَدْ وَهَمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نَيْلِ الْقَمَرِ. وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ: «الْجُغْرَافِيَا» وَذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ من هَذَا النَّيْلِ. وَإِلَى وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَزْءِ الْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ الْهِنْدِ الَّذِي يَدْخُلُ من نَاحِيَةِ الصِّينِ، وَيَعْمُرُ عَامَّةَ هَذَا الْإِقْلِيمِ إِلَى هَذَا الْجَزْءِ الْخَامِسِ، فَلَا يَبْقَى فِيهِ غُمْرَانٌ إِلَّا مَا كَانَ فِي الْجَزَائِرِ الَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَعَدَّدَةٌ، يُقَالُ تَنْتَهِي إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ، أَوْ فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ

الجنوبية وهي آخر المعمور في الجنوب أو فيما على سواجله من جهة الشمال، وليس منها في هذا الإقليم الأول إلا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي إلى جهة الشمال وهما بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب. وتشمّل على بلاد اليمن وبلاد الشحر^(١) في شرفيها على ساحل هذا البحر الهندي، وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما إليهما كما نذكره في الإقليم الثاني وما بعده. فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه قبلد زالع^(٢) من أطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي وتحت بلاد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي معتدًا مع ساحل اليمن من الجنوب إلى الشمال في طول اثني عشر ميلًا، فيضيق البحر بسبب ذلك إلى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها، ويسمى: «باب المندب» وعليه تمر مراكب اليمن إلى ساحل السويس قريبًا من مضر. وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك وقبائنه من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه. ومن شرفيها في هذا الجزء تهائم اليمن، ومنها على ساحل بلد علي بن يعقوب. وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قري بربرتللو بعضها بقصًا. ويتعطف مع جنوبيه إلى آخر الجزء السادس.

ويليها هنالك من جهة شرفيها بلاد الرنج ثم بلاد سفالة على ساحل الجنوبي في الجزء السابع من هذا الإقليم. وفي شرفي بلاد سفالة من ساحل الجنوبي بلاد الواق واق متصلة إلى آخر الجزء العاشر من هذا الإقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط.

وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها، جزيرة سرنديب مدورة الشكل وبها الجبل المشهور، يقال ليس في الأرض أعلى منه، وهي قبالة سفالة. ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب إلى الشرق منحرفة بكثير إلى الشمال إلى أن تقرب من سواجل أعالي الصين؛ ويحتف بها^(٣) في هذا البحر من جنوبيها جزائر الواق واق، ومن شرفيها جزائر السيلان إلى جزائر آخر في هذا البحر كثيرة العدد، وفيها أنواع الطيب

(١) بلاد الشحر: ساحل اليمن.

(٢) بلد زالع: مجموعة قبائل تسكن بين النيل والبحر الأحمر.

(٣) يحتف بها: يحاذيها.

والأفاوية، وفيها يُقال معادن الذهب والرُّمْد، وعامَّة أهلها على دين المجوسية، وفيهم ملوك مُتَعَدِّدُونَ. وبهذه الجزائر من أحوال العُمرانِ عَجَائِبُ ذَكَرَهَا أَهْلُ الجغرافيا. وعلى الصَّفَةِ الشَّمالِيَّةِ من هذا البحرِ في الجزءِ السَّادِسِ من هذا الإقليمِ بلادُ اليَمَنِ كُلِّها. فَمِنْ جِهَةِ بَحْرِ القُلُومِ بَلَدُ زَبِيدَ والمَهْجَمُ وتَهَامَةُ اليَمَنِ؛ وَبَعْدَهَا بَلَدُ صَعْدَةَ مَقَرُّ الإِمَامَةِ الزَّيْدِيَّةِ، وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ البَحْرِ الجَنُوبِيِّ وَعَنِ البَحْرِ الشَّرْقِيِّ. وَفِيما بَعْدَ ذَلِكَ مَدِينَةُ عَدَنَ وَفِي شَمَالِهَا صَنْعَاءُ؛ وَبَعْدَهُمَا إِلَى المَشْرِقِ أَرْضُ الأَحْقَافِ وَظَفَارُ؛ وَبَعْدَهَا أَرْضُ حَضْرَمَوْتَ؛ ثُمَّ بِلَادُ الشَّحْرِ مَا بَيْنَ البَحْرِ الجَنُوبِيِّ وَبَحْرِ فَارِسَ. وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الجزءِ السَّادِسِ هِيَ الَّتِي انْكَشَفَ عَنْهَا البَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الإقليمِ الوُسْطَى، وَيَنْكَشِفُ بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الجزءِ التَّاسِعِ، وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ العَاشِرِ فِيهِ أَعَالِي بِلَادِ الصَّيْنِ، وَمِنْ مُدُنِهِ الشَّهِيرَةِ خَانِكُو، وَقُبَالَتِهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَزَائِرُ السَّيْلَانِ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا. وَهَذَا آخِرُ الكَلَامِ فِي الإقليمِ الأوَّلِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

الإقليم الثاني

وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالأوَّلِ مِنْ جِهَةِ الشَّمالِ. وَقُبَالَةَ المَغْرِبِ مِنْهُ فِي البَحْرِ المُحِيطِ جَزِيرَتَانِ مِنَ الجَزَائِرِ الخَالِدَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا، وَفِي الجزءِ الأوَّلِ والثَّانِي مِنْهُ فِي الجَانِبِ الأَعْلَى مِنْهُمَا أَرْضُ قَنُورِيَّةٍ؛ وَبَعْدَهَا فِي جِهَةِ الشَّرْقِ أَعَالِي أَرْضِ غَانَةَ ثُمَّ مَجَالَاتُ زَغَاوَةَ مِنَ السُّودَانِ؛ وَفِي الجَانِبِ الأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَحْرَاءُ نِيَسْتَرُ مُتَّصِلَةٌ مِنَ المَغْرِبِ إِلَى الشَّرْقِ ذَاتُ مَفَاوِزَ تَشْلُكُ فِيهَا التُّجَّارُ مَا بَيْنَ بِلَادِ المَغْرِبِ وَبِلَادِ السُّودَانِ، وَفِيهَا مَجَالَاتُ المُلْتَمِينَ مِنْ صِنْهَاجَةَ وَهُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ كَرْوَلَةَ وَلَمْتُونَةَ وَمِشْرَاتَةَ وَلَمْطَةَ وَوَرِيكََةَ.

وَعَلَى سَمَتِ هَذِهِ المَفَاوِزِ شَرْقًا أَرْضُ فَرْزَانَ، ثُمَّ مَجَالَاتُ أَرْكَازَ مِنْ قِبَائِلِ البَرْبَرِ ذَاهِبَةً إِلَى أَعَالِي الجزءِ الثَّالِثِ عَلَى سَمَتِهَا فِي الشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هَذَا الجزءِ بِلَادُ كَوَارَ مِنْ أَمَمِ السُّودَانِ؛ ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنَ أَرْضِ البَاجَوِيِّينَ. وَفِي أَسْفَلِ هَذَا الجزءِ الثَّالِثِ وَهِيَ جِهَةُ الشَّمالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ، وَعَلَى سَمَتِهَا شَرْقًا أَرْضُ سِيَنْتَرِيَّةٍ وَتُسَمَّى الوَاحَاتِ الدَّاحِلَةَ.

وَفِي الجزءِ الرَّابِعِ مِنْ أَغْلَاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ البَاجَوِيِّينَ. ثُمَّ يَغْتَرِضُ فِي وَسْطِ هَذَا الجزءِ، بِلَادِ الصَّعِيدِ، حَافَاتُ التَّيْلِ الذَّاهِبِ مِنْ مَبْدِئِهِ فِي الإقليمِ الأوَّلِ إِلَى مَصْبِهِ فِي البَحْرِ، فَيَمُرُّ فِي هَذَا الجزءِ بَيْنَ الجَبَلَيْنِ الحَاجِزَيْنِ، وَهُمَا جَبَلُ الوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِهِ، وَجَبَلُ المُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِيهِ،

وَعَلَيْهِ مِنْ أَغْلَاهُ بَلَدٌ أَشْنَا وَأَرْمَنَتْ، وَيَتَّصِلُ كَذَلِكَ حَافَاتُهُ إِلَى أَشْيُوطَ وَقَوْصَ ثُمَّ إِلَى صُولٍ.
وَيَفْتَرِقُ النَّيْلُ هُنَالِكَ عَلَى شِغْبَيْنِ يَنْتَهِي الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هَذَا الْجُزْءِ عِنْدَ اللَّاهُونَ وَالْأَيْسَرُ عِنْدَ
دِلَاصَ؛ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ.

وَفِي الشَّرْقِ مِنْ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ صَحَارَى عَيْذَابَ ذَاهِبَةً فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى
بَحْرِ الشَّوَيْسِ، وَهُوَ بَحْرُ الْقَلْزَمِ الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ. وَفِي
عُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ الْحِجَازِ مِنْ جَبَلٍ يَلْتَمَسُ إِلَى بِلَادِ يَثْرِبَ. وَفِي وَسْطِ
الْحِجَازِ مَكَّةُ - شَرْفُهَا اللَّهُ - وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جُدَّةَ تُقَابِلُ بَلَدَ عَيْذَابَ فِي الْعُدُوتِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ
هَذَا الْبَحْرِ.

وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ غَرْبِهِ بِلَادُ نَجْدٍ أَغْلَاهَا فِي الْجَنُوبِ وَتَبَالُهُ وَجَرَشُ إِلَى عُكَاطَ مِنْ
الشَّمَالِ. وَتَحْتَ نَجْدٍ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْحِجَازِ؛ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ بِلَادُ نَجْرَانَ
وَحَبِيرَ، وَتَحْتَهَا أَرْضُ الْيَمَامَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي الشَّرْقِ أَرْضُ سَبَأَ وَمَأْرِبَ، ثُمَّ أَرْضُ
الشَّحْرِ. وَيَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارَسَ وَهُوَ الْبَحْرُ الثَّانِي الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّمَالِ كَمَا
مَرَّ. وَيَذْهَبُ فِي هَذَا الْجُزْءِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الْغَرْبِ فَيَمُرُّ مَا بَيْنَ شَرْقِيَّةِ وَجُزْئِيَّةِ قِطْعَةٍ مُثَلَّثَةٍ عَلَيْهَا
مِنْ أَغْلَاهُ مَدِينَةُ قُلْهَاتَ وَهِيَ سَاحِلُ الشَّحْرِ، ثُمَّ تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ بِلَادُ عُمَانَ، ثُمَّ بِلَادُ
الْبَحْرَيْنِ، وَهَجَرَ مِنْهَا فِي آخِرِ الْجُزْءِ. وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِهِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ
فَارَسَ تَتَّصِلُ بِالْقِطْعَةِ الْأُخْرَى فِي السَّادِسِ. وَيَغْمُرُ بَحْرُ الْهِنْدِ جَانِبَهُ الْأَعْلَى كُلَّهُ. وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ
بِلَادُ السِّنْدِ إِلَى بِلَادِ مَكْرَانَ وَيُقَابِلُهَا بِلَادُ الطُّوْبَرَانِ وَهِيَ مِنَ السِّنْدِ أَيْضًا. فَيَتَّصِلُ السِّنْدُ كُلُّهُ
فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ، وَتَحُولُ الْمُفَاوِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ الْهِنْدِ، وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ الْآتِي
مِنْ نَاحِيَةِ بِلَادِ الْهِنْدِ، وَيَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ. وَأَوَّلُ بِلَادِ الْهِنْدِ عَلَى سَاحِلِ
الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ، وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ بَلْهَرَا، وَتَحْتَهَا الْمُتْلَتَانُ بِلَادُ الصَّنَمِ الْمُعْظَمِ عِنْدَهُنَّ، ثُمَّ
إِلَى أَسْفَلَ مِنَ السِّنْدِ، ثُمَّ إِلَى أَعَالِي بِلَادِ سِيحِسْتَانَ.

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ بَقِيَّةُ بِلَادِ بَلْهَرَا مِنَ الْهِنْدِ، وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ الْقَنْدَهَارِ ثُمَّ
بِلَادُ مَنِيَارَ، وَفِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَتَحْتَهَا فِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ أَرْضُ
كَابُلَ، وَبَعْدَهَا شَرْقًا إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ بِلَادُ الْقَنُوجِ مَا بَيْنَ قَشْمِيرِ الدَّاخِلَةِ وَقَشْمِيرِ الْخَارِجَةِ
عِنْدَ آخِرِ الْإِقْلِيمِ.

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ، ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ الْهِنْدِ الْأَقْصَى، وَيَتَّصِلُ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ

الشرقيّ فيتصل من أعلاه إلى العاشر، وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون، ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط، والله ورسوله أعلم، وبه سبحانه التوفيق، وهو ولي الفضل والكرم.

الإقليم الثالث

وهو متصل بالثاني من جهة الشمال. ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن مغترض فيه من غربيّه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره. ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يخصهم إلا خالقهم، حسبما يأتي ذكره. وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة، ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول، وعلى سمتها شرقا بلاد دزعة، ثم بلاد سيجلماسة ثم قطعة من صحراء نيستر المفازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني. وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء، وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياها ومسالكها إلى أن ينتهي. وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتاة، ثم تيملك، ثم كدميو، ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه، ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة. وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة. ويتصل به هنالك من جوفيّه جبل أوراس وهو جبل كثامة. وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكورهم في أماكنهم. ثم إن جبل درن هذا من جهة غربيّه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيّه. ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراکش وأعماق وتادلا. وعلى البحر المحيط منها رباط أسفي ومدينة سلا. وفي الجوف عن بلاد مراکش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كثامة. وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها. وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان: أصيلا، والقرايش. وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان، وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر. لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الإقليم الرابع، ويذهب مشرقا فينتهي إلى بلاد الشام، فإذا خرج من الخليج المتضائق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا فدخل في الإقليم الثالث والخامس. فلهذا كان على ساحله من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلاده. ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر، ثم قسنطينة في الشرق منها. وفي آخر الجزء الأول، وعلى مزحلة من هذا البحر في

جنوب هذه البلاد ومُرْتَفِعًا إِلَى جَنُوبِ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ بَلَدٌ أَشِيرٌ، ثُمَّ بَلَدُ الْمَسِيلَةِ ثُمَّ الزَّابُ وَقَاعِدَتُهَا بِشَكْرَةِ تَحْتَ جَبَلٍ أَوْرَاسِ الْمُتَّصِلِ بِدَرَنْ كَمَا مَرَّ. وَذَلِكَ عِنْدَ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ.

وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عَلَى هَيْئَةِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ جَبَلٌ دَرَنْ عَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ جَنُوبِهِ ذَاهِبًا فِيهِ مِنْ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ فَيَقْسِمُهُ بِقِطْعَتَيْنِ. وَيَتَعَمَّرُ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ مَسَافَةً مِنْ شَمَالِهِ. فَالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلٍ دَرَنْ غَرْبُهَا كُلُّهُ مَفَاوِزُ، وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بَلَدٌ غَدَامِسَ، وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضٌ وَدَّانَ الَّتِي يَقْبِئُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي كَمَا مَرَّ. وَالْقِطْعَةُ الْخَوْفِيَّةُ عَنْ جَبَلٍ دَرَنْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْغَرْبِ مِنْهَا جَبَلٌ أَوْرَاسَ وَتَبَسَّةُ وَالْأَوْبَسُ. وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَلَدٌ بُونَةُ. ثُمَّ فِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ إِفْرِيقِيَّةَ. فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ تُونِسَ، ثُمَّ سوسة؛ ثُمَّ الْمَهْدِيَّةُ. وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ تَحْتَ جَبَلٍ دَرَنْ بِلَادُ الْجَرِيدِ: تَوَزُّرُ؛ وَقَفْصَةُ؛ وَنَفْرَاوَةُ. وَفِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّوَاوِلِ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانِ وَجَبَلٌ وَشَلَاتٌ وَسُبَيْطَلَةُ. وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ كُلِّهَا شَرْقًا بَلَدٌ طَرَابُلُسَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ. وَبَارَائِهَا فِي الْجَنُوبِ جَبَلٌ دُمُرُ وَنَفْرَةُ مِنْ قَبَائِلِ هَوَارَةَ مُتَّصِلَةٌ بِجَبَلِ دَرَنْ، وَفِي مُقَابِلَةِ غَدَامِسَ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي آخِرِ الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ. وَآخِرُ هَذَا الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ سُؤْفَةُ ابْنِ مَشْكُورَةَ عَلَى الْبَحْرِ. وَفِي جَنُوبِهَا مَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِي أَرْضِ وَدَّانَ.

وَفِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ يَمُرُّ أَيْضًا فِيهِ جَبَلٌ دَرَنْ، إِلَّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ طَرْفَ أَوْثَانَ. وَالْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنْ شَمَالِهِ يَتَعَمَّرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى أَنْ يُضَاقَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنْ. فَالَّذِي وَرَاءَ الْجَبَلِ فِي الْجَنُوبِ وَفِي الْغَرْبِ مِنْهُ يَقْبِئُهُ أَرْضُ وَدَّانَ وَمَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا، ثُمَّ زَوِيلَةُ ابْنِ الْخَطَّابِ، ثُمَّ رِمَالٌ وَقَفَارٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ. وَفِيمَا بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فِي الْغَرْبِ مِنْهُ بَلَدٌ سُورَتُ عَلَى الْبَحْرِ. ثُمَّ خَلَاءٌ وَقَفَارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ. ثُمَّ أَجْدَايَةُ، ثُمَّ بَرْقَةُ عِنْدَ مُنْعَطِفِ الْجَبَلِ ثُمَّ طَلَمَسَةُ عَلَى الْبَحْرِ هُنَالِكَ، ثُمَّ فِي شَرْقِ الْمُنْعَطِفِ مِنَ الْجَبَلِ مَجَالَاتُ هَنْبِ وَرُوحَاةُ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ.

وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِهِ صَحَارَى بَرْزَقِي، وَأَسْفَلُ مِنْهَا بِلَادُ هَنْبِ وَرُوحَاةَ. ثُمَّ يَدْخُلُ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ فَيَتَعَمَّرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ، حَتَّى يَزَاجِمَ طَرْفَهُ الْأَعْلَى، وَيَقْبِئُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ قِفَارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ. وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا

بلاد الفَيُوم وهي على مَصَبِّ أَحَدِ الشَّعْبَيْنِ مِنَ التِّلِّ الَّذِي يَمُرُّ عَلَى اللاهونِ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي. وَيَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ فَيُومٍ^(١) وَعَلَى سَمِيهِ شَرْقًا أَرْضُ مِصْرَ وَمَدِينَتُهَا الشَّهِيرَةُ عَلَى الشَّعْبِ الثَّانِي الَّذِي يَمُرُّ بِدَلَاصٍ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّانِي. وَيَفْتَرِقُ هَذَا الشَّعْبُ افْتِرَاقَةً ثَانِيَةً مِنْ تَحْتِ مِصْرَ عَلَى شُعْبَيْنِ آخَرَيْنِ مِنْ شَنْطُوفٍ وَرَقْتَى. وَيَنْقَسِمُ الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا مِنْ قُرْمَطَ بِشُعْبَيْنِ آخَرَيْنِ وَيَصُبُّ جَمِيعُهَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ. فَعَلَى مَصَبِّ الْعَرَبِيِّ مِنْ هَذَا الشَّعْبِ بَلَدُ الْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَعَلَى مَصَبِّ الْوَسْطِ بَلَدُ رَشِيدٍ، وَعَلَى مَصَبِّ الشَّرْقِيِّ بَلَدُ دِمِيَاطَ. وَبَيْنَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ، وَبَيْنَ هَذِهِ السَّوَاكِحِلِ الْبَحْرِيَّةِ أَسَافِلُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ كُلُّهَا مَحْشُوءَةٌ عُمَرَانًا وَقُلُجًا.

وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الشَّامِ، وَأَكْثَرُهَا عَلَى مَا أَصِفُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ بَحْرَ الْقُلْزُمِ يَنْتَهِي مِنَ الْجَنُوبِ وَفِي الْعَرَبِ مِنْهُ عِنْدَ الشَّوَيْسِ، لِأَنَّهُ فِي مَمَرِهِ مُتَبَدِّئًا إِلَى الشَّامِ يَنْعَطِفُ آخِذًا إِلَى جِهَةِ الْعَرَبِ، فَتَكُونُ قِطْعَةً مِنْ انْعِطَافِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ طَوِيلَةً فَيَنْتَهِي فِي الطَّرَفِ الْعَرَبِيِّ مِنْهُ إِلَى الشَّوَيْسِ. وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ بَعْدَ الشَّوَيْسِ فَارَانَ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ ثُمَّ أَيْلَةُ مَدِينِ ثُمَّ الْحَوْرَاءُ فِي آخِرِهَا. وَمِنْ هُنَاكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ إِلَى الْجَنُوبِ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَمَا مَرَّ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ. وَفِي التَّاحِيَةِ الشَّامِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عَمَرَتْ كَثِيرًا مِنْ غَرَبِيَّةِ عَلَيَّهَا الْفُرْمَا وَالْعَرِيشُ، وَقَارَبَ طَرَفُهَا بَلَدَ الْقُلْزُمِ، فَيُضَافُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَاكَ، وَبَقِيَ شِبْهُ الْبَابِ مُفْضِيًا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ. وَفِي غَرْبِي هَذَا الْبَابِ فَخْصُ التِّيهِ أَرْضُ جَرْدَاءَ لَا تُنْبِتُ؛ كَانَتْ مَجَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً كَمَا قَصَّاهُ الْقُرْآنُ^(٢). وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي هَذَا الْجُزْءِ طَائِفَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ قُبُزَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ كَمَا نَذَكِرُهُ. وَعَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ الطَّرَفِ الْمُتَضَافِقِ لِبَحْرِ الشَّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيشِ، وَهُوَ آخِرُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَعَسْقلَانُ؛ وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هَذَا الْبَحْرِ ثُمَّ تَنْحَطُّ هَذِهِ الْقِطْعَةُ فِي انْعِطَافِهَا مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَغَزَّةَ. وَهُنَاكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ الرُّومِيُّ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ. وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاكِحِلِ الشَّامِ. فَبَيْنَ شَرْقِهِ غَزَّةَ ثُمَّ عَسْقلَانُ، بِانْحِرَافٍ يَسِيرُ عَنْهَا إِلَى الشَّامِ بَلَدُ قِيسَارِيَّةَ. ثُمَّ كَذَلِكَ بَلَدُ عَكَا ثُمَّ صُورُ ثُمَّ صَيْدَا ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إِلَى الشَّامِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ. وَيُقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادَ

(١) بحيرة فيوم : بحيرة فارون .

(٢) قصة القرآن في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُتَحَرِّمَةٌ ﴾ [المائدة: ٢٦].

الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر القلزم، ويذهب في ناحية الشمال منحرفاً إلى الشرق إلى أن يجاوز هذا الجزء ويسمى جبل اللكام؛ وكأنه حاجز بين أرض مصر والشام. ففي طرفه عند أيلة العقبة التي يمر عليها الحجاج من مصر إلى مكة، ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل - عليه الصلاة والسلام - عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهباً على سمت الشرق؛ ثم ينعطف قليلاً. وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار نمود وتيماء ودومة الجندل وهي أسافل الحجاز. وفوقها جبل رضوى، وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها. وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبوك. وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكام ثم الأزود ثم طبرية. وفي شرقها بلاد الغور إلى أذرعاب. وفي سمتها شرقاً دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز. وعند منعطف جبل اللكام إلى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وتبروت من القطعة البحرية، وجبل اللكام يغترض بينها وبينها. وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك، ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام. وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية إلى آخر الجزء.

وفي الجزء السادس من أغلاة مجالات الأغراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان إلى البحرين وهجر على بحر فارس. وفي أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقاديسية ومعايض الفرات. وفيما بعدها شرقاً مدينة البصرة. وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبّادان والأبلة من أسافل الجزء من شماليه. ويصّب فيه عند عبّادان نهو دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول أخرى من الفرات، ثم تجتمع كلها عند عبّادان وتصب في بحر فارس. وهذه القطعة من البحر متسعة في أغلاة متضايقة في آخره في شوقيه وصيقة عند منتهاه متضايقة للحد الشمالي منه. وعلى غדותها الغربية منه أسافل البحرين وهجر والأحساء، وفي غربها أخطب والصمان وبقية أرض اليمامة، وعلى غדותه الشرقية سواحل فارس من أغلاها، وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قيد امتد من هذا البحر مشرقاً. ووراءه إلى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كزمان وتحت هزمز على الساحل بلد سيراف ونجيرم على ساحل هذا البحر. وفي شوقيه إلى آخر هذا الجزء وتحت هزمز بلاد فارس مثل سابور ودار أيجرد ونسا واضطخز والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها. وتحت بلاد فارس إلى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان، ومنها الأهواز

وَتُسْتَرَّ وَصَدَى وَسَابُورُ وَالشُّوسُ وَرَامُ هُرْمُزْ؛ وَغَيْرُهَا وَأَرْجَانُ وَهِيَ حَدُّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُوزِشْتَانَ. وَفِي شَرْقِيَّ بِلَادِ خُوزِشْتَانَ جِبَالُ الْأَكْرَادِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وَبِهَا مَسَاكِنُهُمْ وَمَجَالَتُهُمْ وَرَاءَهَا فِي أَرْضِ فَارِسَ، وَتُسَمَّى الرُّسُومَ.

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْهُ مِنَ الْمَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبَالِ الْقَفْصِ، وَيَلِيهَا مِنَ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ بِلَادُ كَرْمَانَ وَمَكَرَانَ، وَمِنْ مُدْنِيهَا الرُّودَانَ وَالشَّيْرَجَانَ وَجِيرَفَتْ وَيَزْدَشِيرُ وَالبَهْرُجُ. وَتَحْتَ أَرْضِ كَرْمَانَ إِلَى الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ، وَمَدِينَةُ أَصْبَهَانَ فِي طَرَفِ هَذَا الْجُزْءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ. ثُمَّ فِي الْمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كَرْمَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ أَرْضُ سِيجِسْتَانَ وَكُوهِشْتَانَ فِي الْجَنُوبِ. وَأَرْضُ كُوهِشْتَانَ فِي الشَّمَالِ عَنْهَا. وَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ كَرْمَانَ وَفَارِسَ وَيَتَنَ سِيجِسْتَانَ وَكُوهِشْتَانَ، فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ الْمَفَاوِزُ الْعُظْمَى الْقَلِيلَةُ الْمَسَالِكِ لِيَصْعُوبَتِهَا. وَمِنْ مُدْنِ سِيجِسْتَانَ بَسْتُ وَالطَّاقُ. وَأَمَّا كُوهِشْتَانَ فَهِيَ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ، وَمِنْ مَشَاهِيرِ بِلَادِهَا سَرَخْسُ وَكُوهِشْتَانَ آخِرُ الْجُزْءِ.

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مَجَالَاتُ الْجُلُحِ مِنْ أَمَمِ التُّرْكِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ سِيجِسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا وَبِأَرْضِ كَابُلِ الْهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا. وَفِي الشَّمَالِ عَنْ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ جِبَالُ الْعَوْرِ وَبِلَادُهَا وَقَاعِدَتُهَا غَرْزَةُ فَرْصَةُ الْهِنْدِ. وَفِي آخِرِ الْعَوْرِ مِنَ الشَّمَالِ بِلَادُ أَشْتَرَابَادَ، ثُمَّ فِي الشَّمَالِ غَرْبًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ هَرَاةَ أَوْسَطُ خُرَاسَانَ. وَبِهَا أَشْفَرَايُنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنُجُ وَمَزُورُ الرُّودِ وَالطَّالِقَانُ وَالْجُوزْجَانُ. وَتَنْتَهِي خُرَاسَانُ هُنَالِكَ إِلَى نَهَرِ جَيْحُونَ. وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ مِنْ غَرْبِهِ مَدِينَةُ بَلُخَ، وَفِي شَرْقِيَّهَا مَدِينَةُ يَزْمَدَ، وَمَدِينَةُ بَلُخَ كَانَتْ كُرْسِيَّ مَمْلَكَةِ التُّرْكِ. وَهَذَا النَّهَرُ، نَهَرُ جَيْحُونَ، مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَارَ فِي حُدُودِ بَذْخَشَانَ مِمَّا يَلِي الْهِنْدَ. وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هَذَا الْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبِ مُغْرَبًا إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ، وَيُسَمَّى هُنَالِكَ نَهَرُ خَرَنَابَ؛ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ، وَيَذْهَبُ عَلَى سَعْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بُحَيْرَةِ خُورَزْمَ فِي الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ كَمَا نَذَكُرُهُ. وَيُمِدُّهُ عِنْدَ انْعِطَافِهِ فِي وَسْطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٍ مِنْ بِلَادِ الْخُتَلِ وَالْوَحْشِ مِنْ شَرْقِيَّهِ، وَأَنْهَارٌ أُخْرَى مِنْ جِبَالِ الْبُتْمِ مِنْ شَرْقِيَّهِ أَيْضًا وَجُوفِي الْجَبَلِ حَتَّى يَتَّبِعَ وَيَعْظُمُ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ، وَمِنْ هَذِهِ الْأَنْهَارِ الْخَمْسَةِ الْمُمِدَّةِ لَهُ نَهَرُ وَخْشَابَ، يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ الثُّبَّتِ، وَهِيَ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فَيَمُرُّ مُغْرَبًا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجُزْءِ يَغْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِهِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَمُرُّ مِنْ

وَسَطِ الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ، وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّامِ، إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجَزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجُزْءِ، فَيَجُوزُ بِلَادَ التَّبَّتِ إِلَى الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ. وَيَحُولُ بَيْنَ التُّرُكِ وَبَيْنَ بِلَادِ الحُتْلِ؛ وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَسَلَكٌ وَاحِدٌ فِي وَسَطِ الشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ جَعَلَ فِيهِ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى سُدًّا وَبَنَى فِيهِ بَابًا كَسَدُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ^(١). فَإِذَا خَرَجَ نَهْرُ وَخْشَابٍ مِنْ بِلَادِ التَّبَّتِ وَاعْتَرَضَهُ هَذَا الْجَبَلُ فَيَمُرُّ تَحْتَهُ فِي مَدًى بَعِيدٍ إِلَى أَنْ يَمُرَّ فِي بِلَادِ الْوَحْشِ، وَيَصُوبُ فِي نَهْرِ جَيْحُونَ عِنْدَ حُدُودِ بَلْخٍ، ثُمَّ يَمُرُّ هَابِطًا إِلَى التَّرْمِذِ فِي الشَّامِ إِلَى بِلَادِ الْجُوزْجَانِ. وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ الْغُورِ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَهْرِ جَيْحُونَ بِلَادُ النَّاسَانِ مِنْ خُرَاسَانَ. وَفِي الْعُدُوةِ الشَّرْقِيَّةِ هُنَالِكَ مِنَ النَّهْرِ بِلَادُ الحُتْلِ وَأَكْثَرُهَا جِبَالٌ، وَبِلَادُ الْوَحْشِ، وَيَتَّخِذُهَا مِنْ جِهَةِ الشَّامِ جِبَالُ البَّثَمِ تَخْرُجُ مِنْ طَرَفِ خُرَاسَانَ غَرْبِي نَهْرِ جَيْحُونَ، وَتَذْهَبُ مُشْرِقَةً إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ طَرَفُهَا بِالْجَبَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي خَلَقَهُ بِلَادُ التَّبَّتِ. وَيَمُرُّ تَحْتَهُ نَهْرُ وَخْشَابٍ كَمَا قُلْنَا فَتَتَّصِلُ بِهِ عِنْدَ بَابِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى. وَيَمُرُّ نَهْرُ جَيْحُونَ بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَأَنْهَارُ أُخْرَى تَصُوبُ فِيهِ مِنْهَا نَهْرُ بِلَادِ الْوَحْشِ يَصُوبُ فِيهِ مِنَ الشَّرْقِ تَحْتَ التَّرْمِذِ إِلَى جِهَةِ الشَّامِ، وَنَهْرُ بَلْخٍ يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ البَّثَمِ مِنْ مَبْدِئِهِ عِنْدَ الْجُوزْجَانِ وَيَصُوبُ فِيهِ مِنْ غَرْبِهِ. وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ غَرْبِهِ بِلَادُ أَمِدٍ مِنْ خُرَاسَانَ. وَفِي شَرْقِي النَّهْرِ مِنْ هُنَالِكَ أَرْضُ الصُّغْدِ وَأَسْرُوسَنَةَ مِنْ بِلَادِ التُّرُكِ، وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ فَرْعَانَةَ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجَزْءِ شَرْقًا. وَكُلُّ بِلَادِ التُّرُكِ يَحُورُّهَا جِبَالُ البَّثَمِ إِلَى شَمَالِهَا.

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ غَرْبِهِ أَرْضُ التَّبَّتِ إِلَى وَسَطِ الْجَزْءِ، وَفِي جَنُوبِهَا بِلَادُ الْهِنْدِ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادُ الصِّينِ إِلَى آخِرِ الْجَزْءِ. وَفِي أَسْفَلِ هَذَا الْجَزْءِ شَمَالًا عَنْ بِلَادِ التَّبَّتِ بِلَادُ الْخَزَلَجِيَّةِ مِنْ بِلَادِ التُّرُكِ إِلَى آخِرِ الْجَزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا. وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ غَرْبِهَا أَرْضُ فَرْعَانَةَ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجَزْءِ شَرْقًا، وَمِنْ شَرْقِهَا أَرْضُ التَّغَرُّغَرِ مِنَ التُّرُكِ إِلَى آخِرِ الْجَزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا.

وَفِي الْجَزْءِ الْعَاشِرِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ جَمِيعًا بَقِيَّةُ الصِّينِ وَأَسَافِلُهُ. وَفِي الشَّامِ بَقِيَّةُ بِلَادِ التَّغَرُّغَرِ. ثُمَّ شَرْقًا عَنْهُمْ بِلَادُ خِرْخِيرٍ مِنَ التُّرُكِ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجَزْءِ شَرْقًا. وَفِي الشَّامِ مِنْ أَرْضِ خِرْخِيرٍ بِلَادُ كَتْمَانَ مِنَ التُّرُكِ. وَقُبَالَتِهَا فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ جَزِيرَةُ الْيَاقُوتِ فِي وَسَطِ جَبَلِ مُسْتَنْدِيرٍ لَا مَنَافَذَ مِنْهُ إِلَيْهَا وَلَا مَسَلَكٌ؛ وَالصُّعُودُ إِلَى أَعْلَاهُ مِنْ خَارِجِهِ صَعْبٌ فِي الْغَايَةِ. وَفِي الْجَزِيرَةِ حَيَاتٌ قَتَالَةٌ وَحَصَى مِنَ الْيَاقُوتِ كَثِيرَةٌ؛ فَيَحْتَالُ أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ فِي اسْتِخْرَاجِهِ بِمَا

(١) جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

يُلْهِمُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ. وَأَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ فِي هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَالْعَاشِرِ. فِيمَا وَرَاءَ خُرَاسَانَ وَالْجِبَالِ كُلِّهَا مَجَالَاتٌ لِلتُّرْكِ. أُمَمٌ لَا تُحْصَى؛ وَهُمْ طَوَاعِينُ رَحَالَةٍ أَهْلُ إِبِلٍ وَشَاةٍ وَبَقَرٍ وَخَيْلٍ لِلتَّنَاجِ وَالرُّكُوبِ وَالْأَكْلِ وَطَوَائِفُهُمْ كَثِيرَةٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ وَفِيهِمْ مُسْلِمُونَ مِمَّا يَلِي بِلَادَ النَّهْرِ. نَهْرٌ جَيِّحُونَ. وَيَغْزُونَ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ الدَّائِنِينَ بِالْمَجُوسِيَّةِ، فَيَبْيعُونَ رَقِيقَهُمْ لِمَنْ يَلِيهِمْ وَيَخْرُجُونَ إِلَى بِلَادِ خُرَاسَانَ وَالْهِنْدِ وَالْعِرَاقِ.

الإقليم الرابع

يُصَلُّ بِالنَّالِكِ مِنْ جَزْءِ الشَّمَالِ

وَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ فِي غَرْبِهِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ أَوَّلِهِ جَنُوبًا إِلَى آخِرِهِ شَمَالًا وَعَلَيْهَا فِي الْجَنُوبِ مَدِينَةُ طَنْجَةَ، وَمِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ تَحْتَ طَنْجَةَ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي خَلِيجٍ مُتَضَائِقٍ بِمَقْدَارِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا مَا بَيْنَ طَرِيفِ وَالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ شَمَالًا وَقَصْرِ الْمَجَازِ وَسَبْتَةَ جَنُوبًا؛ وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ، وَيَنْفَسِخُ فِي ذَهَابِهِ بِتَدْرِيجٍ إِلَى أَنْ يَغْمُرَ الْأَرْبَعَةَ أَجْزَاءَ وَأَكْثَرَ الْخَامِسِ وَيَغْمُرُ عَنْ جَانِبَيْهِ طَرَفًا مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَالْخَامِسِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ. وَيُسَمَّى هَذَا الْبَحْرُ الْبَحْرَ الشَّامِيِّ أَيْضًا. وَفِيهِ جَزَائِرٌ كَثِيرَةٌ أَعْظَمُهَا فِي جِهَةِ الْغَرْبِ يَابِسَةٌ، ثُمَّ مَا يَزُوقُ، ثُمَّ مِنْزَقَةٌ، ثُمَّ سَرْدَانِيَّةٌ ثُمَّ سِقِلِيَّةٌ وَهِيَ أَكْثَرُهَا، ثُمَّ بَلُؤُسُ، ثُمَّ أَقْرِيطَشُ ثُمَّ قَبْرُصُ كَمَا نَذْكُرُهَا كُلَّهَا فِي أَجْرَائِهَا الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا. وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْهُ، وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، خَلِيجُ الْبَنَادِقَةِ، يَذْهَبُ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ عِنْدَ وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ جَوْفِيهِ، وَيَمُرُّ مُغْرَبًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْخَامِسِ. وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ شَرْقًا مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، يَمُرُّ فِي الشَّمَالِ مُتَضَائِقًا فِي عَرْضِ رَمِيَّةِ السَّهْمِ إِلَى آخِرِ الْإِقْلِيمِ. ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، وَيَنْعَطِفُ إِلَى بَحْرِ نِيطَشَ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ كُلِّهِ وَنِصْفِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ فِي أَمَاكِينِهِ. وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ هَذَا الْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي خَلِيجِ طَنْجَةَ، وَيَنْفَسِخُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ يَبْقَى فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْخَلِيجِ قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا مَدِينَةُ طَنْجَةَ عَلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، وَبَعْدَهَا مَدِينَةُ سَبْتَةَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ثُمَّ قَطَاوُنُ ثُمَّ

باديس. ثم يعمُر هذا البحر ببقية هذا الجزء شرقاً، ويخرج إلى الثالث. وأكثر العِمارة في هذا الجزء في شماليه وشمالي الخليج منه، وهي كلها بلاد الأندلس الغزبية، ومنها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي، أولها طريف عند مجمع البحرين، وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة، ثم المنكب ثم المرية. وتحت هذه من لدن البحر المحيط غرباً وعلى مقربة منه شريش، ثم لبلّة، وقبالتها فيه جزيرة قادس، وفي الشرق عن شريش ولبلّة أشبيلية، ثم استجة وقوطبة ومديلة، ثم غرناطة وجيان وأبدّة، ثم وادياش وبسطة، وتحت هذه شتمةرية وشلب على البحر المحيط غرباً، وفي الشرق عنهما بطليوس وماردة ويابرة، ثم غافق وبزجالة، ثم قلعة رياح. وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غرباً، وعلى نهر باجة، وفي الشرق عنها شتريين وموزية على النهر المذكور، ثم قنطرة الشيف. ويسامت أشبونة من جهة الشرق جبل الشارات، يبدأ من المغرب هنالك، ويذهب مشرقاً مع آخر الجزء من شماليه فينتهي إلى مدينة سالم فيما بعد النصف منه. وتحت هذا الجبل طليبة في الشرق من فورته، ثم طليطة، ثم وادي الحجارة ثم مدينة سالم. وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين أشبونة بلد قلعة، وهذه غزبي الأندلس. وأما شرقي الأندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قوطاجنة، ثم لفته، ثم دانية، ثم بلنسية إلى طرطوشة آخر الجزء في الشرق، وتحتها شمالاً ليورقة وشقورة متاخمان بسطة وقلعة رياح من غزب الأندلس. ثم مرسية شرقاً، ثم شاطبة تحت بلنسية شمالاً، ثم شقر ثم طرطوشة، ثم طوكونة آخر الجزء. ثم تحت هذه شمالاً أرض منجالة وزيدة متاخمان لشقورة وطليطة من الغرب، ثم أفراغة شرقاً تحت طرطوشة وشمالاً عنها. ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقاً وشمالاً.

والجزء الثاني من هذا الإقليم غمر الماء جميعه إلا قطعة من غزبيه في الشمال، فيها بقعة جبل البرنات ومعناه جبل الثنايا. والسالك يخرج إليه من آخر الجزء الأول من الإقليم الخامس، يبدأ من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوباً وشرقاً، ويمر في الجنوب بانحراف إلى الشرق فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفاً عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثاني، فيقع فيه قطعة منه، تفضي^(١) ثناياها إلى البر المتصل، وتسمى أرض عسكورية، وفيه مدينة خريدة وقوسونة. وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة

(١) تفضي: توصل، أو تؤدي.

بَرَشْلُونَةُ ثم أربونَةُ. وفي هذا البحر الَّذِي غَمَرَ الْجَزْءَ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ، وَالْكَثِيرُ مِنْهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ لِصِغَرِهَا. فَفِي غَرْبِيَّةِ جَزِيرَةِ سَرْدَانِيَّةَ، وَفِي شَرْقِيَّةِ جَزِيرَةِ صِقَالِيَّةِ مُتَبَعَةُ الْأَقْطَارِ يُقَالُ: إِنَّ دَوْرَهَا سَبْعُمِائَةِ مِيلٍ، وَبِهَا مُدُنٌ كَثِيرَةٌ مَشَاهِيرُهَا سَرَقُوسَةُ وَبَلَرْمُ وَطَرَابَعَةُ وَمَازِرُ وَمُسِينِي وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ تُقَابِلُ أَرْضَ إِفْرِيقِيَّةَ، وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ أَعْدُوشَ وَمَالِطَةُ.

وَالْجَزْءُ الثَّالِثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَعْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ إِلَّا ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ، الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا أَرْضُ قَلُورِيَّةَ؛ وَالْوُسْطَى مِنْ أَرْضِ أَبْكِيرْدَةَ؛ وَالشَّرْقِيَّةُ مِنْ بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ.

وَالْجَزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَعْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ كَمَا مَرَّ وَجَزَائِرُهُ كَثِيرَةٌ وَأَكْثَرُهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ كَمَا فِي الثَّالِثِ. وَالْمَعْمُورُ مِنْهَا جَزِيرَةُ بَلُؤُسَ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ، وَجَزِيرَةُ أَقْرِيطَشَ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسْطِ الْجُزْءِ إِلَى مَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْهُ.

وَالْجَزْءُ الْخَامِسُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَمَرَ الْبَحْرُ مِنْهُ مُثْلَثَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ، يَنْتَهِي الصُّلْعُ الْغَرْبِيُّ مِنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ، وَيَنْتَهِي الصُّلْعُ الْجَنُوبِيُّ مِنْهَا إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْجُزْءِ، وَيَبْقَى فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ نَحْوِ الثَّلَاثِ، يَمُرُّ الشَّمَالِيُّ مِنْهَا إِلَى الْغَرْبِ مُنْعَطِفًا مَعَ الْبَحْرِ كَمَا قُلْنَا. وَفِي النُّصْفِ الْجَنُوبِيِّ مِنْهَا أَسْفَلُ الشَّامِ، وَيَمُرُّ فِي وَسْطِهَا جَبَلُ اللَّكَّامِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الشَّامِ فِي الشَّمَالِ فَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ ذَاهِبًا إِلَى الْقَطْرِ الشَّرْقِيِّ الشَّمَالِيِّ، وَيُسَمَّى بَعْدَ انْعِطَافِهِ جَبَلُ السَّلْسِلَةِ، وَمِنْ هُنَاكَ يَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ. وَيجوزُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ. وَيَقُومُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ جِبَالٌ مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى طَرَفٍ خَارِجٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مُتَأَخِّرٍ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ. وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ ثَنَاءٌ تُسَمَّى الدَّرُوبُ وَهِيَ الَّتِي تُفْضِي إِلَى بِلَادِ الْأَرَمَنِ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ جَبَلِ السَّلْسِلَةِ. فَأَمَّا الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ الَّتِي قَدَّمْنَا أَنَّ فِيهَا أَسْفَلَ الشَّامِ، وَأَنَّ جَبَلَ اللَّكَّامِ مُعْتَزِّضٌ فِيهَا بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَآخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ، فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْهُ بَلَدٌ أَنْطَرَطُوسَ فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ مُتَاخِمَةٌ لِعَزَّةَ وَطَرَابُلُسَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ، وَفِي شَمَالِ أَنْطَرَطُوسَ جَبَلَةٌ ثُمَّ اللَّادِيَّةُ ثُمَّ إِسْكَندَرُونَةُ ثُمَّ سَلُوقِيَّةُ وَبَعْدَهَا شَمَالًا بِلَادُ الرُّومِ. وَأَمَّا جَبَلُ اللَّكَّامِ الْمُعْتَزِّضُ بَيْنَ الْبَحْرِ وَآخِرِ الْجُزْءِ بِحَاقَاتِهِ فَيُصَاقِفُهُ^(١) مِنْ بِلَادِ الشَّامِ مِنْ أَعْلَى الْجُزْءِ جَنُوبًا مِنْ غَرْبِيَّةِ حِصْنِ الْحَوَانِي وَهُوَ لِلْحَشِيشَةِ^(٢) الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ؛ وَيُغْرَفُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ

(١) يصاقفه: يقاربه، أو يواجهه.

(٢) الحشيشة الإسماعيلية: فرقة تتبع حسن الحشاش من الإسماعيلية.

بالفداوية، ويُسمى الحصن «مضياف» وهو قُبالَة أنطَرطوس. وقُبالَة هذا الحصن في شَرْقِ الجبلِ بَلَدٌ سَلَمِيَّةٌ في الشَّمالِ عن حِفْص. وفي الشَّمالِ عن مِضيافَ بين الجبلِ والبحرِ بَلَدٌ أَنْطَاكِية. ويُقابِلُها في شَرْقِ الجبلِ المَعْرَةُ، وفي شَرْقِها المَرَاغَةُ، وفي شَمالِ أَنْطَاكِية المَصْبِيصَةُ ثم أَدَنَةُ ثم طَرَسُوسُ آخِرَ الشَّامِ. ويُحاذِيها من غَرْبِ الجبلِ قِلْشَرِينُ ثم عَيْنُ زَرْبَةَ. وقُبالَة قِلْشَرِينُ في شَرْقِ الجبلِ حَلَبَ. ويُقابِلُ عَيْنُ زَرْبَةَ مَنبُجَ آخِرَ الشَّامِ. وأَمَّا الدَّرُوبُ فَمِنْ يَمِينِها ما بَيْنَها وَبَيْنَ البَحْرِ الرُّومِيِّ بِلَادُ الرُّومِ التي هي لِهَذَا العَهْدِ لِلتُّرُكَمَانِ وَسُلْطَانِها ابْنُ عُثْمَانَ. وفي سَاحِلِ البَحْرِ مِنْها بَلَدٌ أَنْطَاكِية وَالْعَلَايا. وأَمَّا بِلَادُ الْأَرَمَنِ التي بَيْنَ جَبَلِ الدَّرُوبِ وَجَبَلِ السُّلَيْسَةِ ففِيها بَلَدٌ مَرْعَشٌ وَمَلْطِيَّةُ وَالْمَعْرَةُ إلى آخِرِ الجُزْءِ الشَّامِيِّ. وَيَخْرُجُ مِنَ الجُزْءِ الْخَامِسِ فِي بِلَادِ الْأَرَمَنِ نَهْرُ جَيْحَانَ وَنَهْرُ سَيْحَانَ فِي شَرْقِيَّهِ فَيَمُرُّ بِها جَيْحَانُ جَنُوبًا حَتَّى يَتَجَاوَزَ الدَّرُوبَ، ثُمَّ يَمُرُّ بِطَرَسُوسَ ثُمَّ بِالْمَصْبِيصَةِ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ هَابِطًا إلى الشَّمالِ وَمُعْرَبًا حَتَّى يَصُبَّ فِي البَحْرِ الرُّومِيِّ جَنُوبَ سَلُوقِيَّةَ. وَيَمُرُّ نَهْرُ سَيْحَانَ مُوَازِيًا لِنَهْرِ جَيْحَانَ فَيُحاذِي المَعْرَةَ وَمَرْعَشَ وَيَتَجَاوَزُ جِبَالَ الدَّرُوبِ إلى أَرْضِ الشَّامِ، ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زَرْبَةَ وَيَجُوزُ عَنِ نَهْرِ جَيْحَانَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إلى الشَّمالِ مُعْرَبًا فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ جَيْحَانَ عِنْدَ المَصْبِيصَةِ، وَمِنْ غَرْبِها. وأَمَّا بِلَادُ الجَزِيرَةِ التي يُحِيطُ بِها مُنْعَطِفُ جَبَلِ اللُّكَّامِ إلى جَبَلِ السُّلَيْسَةِ ففِي جَنُوبِها بَلَدُ الرَّاغِصَةِ وَالرُّقَّةَ، ثُمَّ حَزْرَانُ ثُمَّ سَرُوجُ وَالرُّها ثُمَّ نَصِيبِينَ ثُمَّ سُمَيْسَاطُ وَأَمْدُ تَحْتَ جَبَلِ السُّلَيْسَةِ. وَآخِرُ الجُزْءِ مِنَ شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضًا آخِرُ الجُزْءِ مِنَ شَرْقِيَّهِ، وَيَمُرُّ فِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ نَهْرُ الْفَرَاتِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ يَخْرُجَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَمُرَّانِ فِي بِلَادِ الْأَرَمَنِ جَنُوبًا إلى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلَ السُّلَيْسَةِ؛ فَيَمُرُّ نَهْرُ الْفَرَاتِ مِنْ غَرْبِي سُمَيْسَاطُ وَسَرُوجَ وَيَنْحَرِفُ إلى الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الرَّاغِصَةِ وَالرُّقَّةَ وَيَخْرُجُ إلى الجُزْءِ السَّادِسِ. وَيَمُرُّ دِجْلَةُ فِي شَرْقِ أَمْدَ وَيَنْعَطِفُ قَرِيبًا إلى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيبًا إلى الجُزْءِ السَّادِسِ.

وفي الجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيَّهِ بِلَادُ الجَزِيرَةِ، وَفِي الشَّرْقِ مِنْها بِلَادُ الْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِها تَنْتَهِي فِي الشَّرْقِ إلى قَرْبِ آخِرِ الجُزْءِ. وَيَعْتَزُّضُ مِنْ آخِرِ الْعِرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلٌ أَضْبَهُانُ هَابِطًا مِنْ جَنُوبِ الجُزْءِ مُنْحَرِفًا إلى الْغَرْبِ، فَإِذَا انْتَهَى إلى وَسْطِ الجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمالِ يَذْهَبُ مُعْرَبًا إلى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الجُزْءِ السَّادِسِ، وَيَتَّصِلُ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ السُّلَيْسَةِ فِي الجُزْءِ الْخَامِسِ، فَيَنْقَطِعُ هَذَا الجُزْءُ السَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ، ففِي الْغَرْبِيَّةِ مِنْ جَنُوبِها مَخْرُجُ الْفَرَاتِ مِنَ الْخَامِسِ، وَفِي شَمَالِها مَخْرُجُ دِجْلَةَ مِنْهُ. أَمَّا الْفَرَاتُ فَأَوَّلُ مَا يَخْرُجُ إلى

السادس يَمُرُّ بِقَرْقِيسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ هُنَالِكَ جَدُولٌ إِلَى الشَّامِالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَيَعْوِضُ فِي نَوَاحِيهَا، وَيَمُرُّ مِنْ قَرْقِيسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ الرَّحْبَةِ؛ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوِلٌ مِنْ هُنَالِكَ، يَمُرُّ جَنُوبًا وَيَنْقَى صَفِينُ فِي غَرْبِهِ. ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقًا وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بَعْضُهَا بِالْكُوفَةِ، وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ، وَتَخْرُجُ جَمِيعًا فِي جَنُوبِ الْجُزْءِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ، فَيَعْوِضُ هُنَالِكَ فِي شَرْقِ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ. وَيَخْرُجُ الْفُرَاتُ مِنَ الرَّحْبَةِ مُشْرِقًا عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هَيْتٍ مِنْ شَمَالِهَا يَمُرُّ إِلَى الرَّابِ وَالْأَنْبَارِ مِنْ جَنُوبِهَا، ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةٍ عِنْدَ بَغْدَادَ. وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةٍ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ يَمُرُّ مُشْرِقًا عَلَى سَمْتِهِ وَمُحَازِيًا لِجَبَلِ السُّلَيْلَةِ الْمُتَّصِلِ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ عَلَى سَمْتِهِ فَيَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ابْنِ عَمَرَ عَلَى شَمَالِهَا، ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتَكْرِتٍ، وَيَنْتَهِي إِلَى الْحَدِيثَةِ فَيَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَتَبْقَى الْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَالرَّابُّ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذَلِكَ، وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوبًا وَفِي غَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطُ بِالْفُرَاتِ، ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوبًا عَلَى غَرْبِ جَزْجَرَايَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ فَتَنْشِيرُ هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ فَارَسَ عِنْدَ عَبَّادَانَ. وَفِيمَا بَيْنَ نَهْرِ الدَّجْلَةِ وَالْفُرَاتِ قَبْلَ مَجْمَعِهِمَا يَبْغَدَادَ هِيَ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ. وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةٍ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ يَبْغَدَادَ نَهْرٌ آخَرُ يَأْتِي مِنَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ النَّهْرَوَانِ قُبَالَةَ بَغْدَادَ شَرْقًا ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَيَخْتَلِطُ بِدِجْلَةٍ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ. وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هَذَا النَّهْرِ وَبَيْنَ جَبَلِ الْعِرَاقِ وَالْأَعَاجِمِ بِلَادُ جُلُولَاءَ، وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بَلَدُ حُلُوانَ وَصَيْمَرَةَ. وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْغَرْبِيَّةُ مِنَ الْجُزْءِ فَيَغْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ الْأَعَاجِمِ مُشْرِقًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى جَبَلُ شَهْرَزُورَ وَيَنْقَسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ. وَفِي الْجَنُوبِ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى بَلَدُ خَوَنْجَانَ فِي الْغَرْبِ وَالشَّامِالِ عَنْ أَصْبَهَانَ، وَتُسَمَّى هَذِهِ الْقِطْعَةُ بَلَدُ الْهُلُوسِ، وَفِي وَسْطِهَا بَلَدُ نَهَاوَنْدَ وَفِي شَمَالِهَا بَلَدُ شَهْرَزُورَ غَرْبًا عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَبَلَيْنِ، وَالْدَيْنُورُ شَرْقًا عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ. وَفِي الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى الثَّانِيَةِ طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ قَاعِدَتُهَا الْمَرَاغَةُ، وَالَّذِي يُقَابِلُهَا مِنْ جَبَلِ الْعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِينُ لِلْأَكْرَادِ، وَالرَّابُّ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ الَّذِي عَلَى دِجْلَةٍ مِنْ وَرَائِهِ. وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ بِلَادُ أَذْرَبِيجَانَ وَمِنْهَا تَبْرِيزُ وَالبَنْدَقَانُ. وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ وَهُوَ بَحْرُ الْخَزَرِ.

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلَادِ الْهُلُوسِ، وَفِيهَا هَمْدَانُ

وَقَرْوَيْنَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَفِيهَا هُنَالِكَ أَصْبَهَانُ ، وَيُحِيطُ بِهَا مِنَ الْجَنُوبِ جَبَلٌ يَخْرُجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِالْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ؛ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ فِي شَرْقِيَّةِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِبِلَادِ الْهُلُسِ فِي الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ. وَيَهْبِطُ هَذَا الْجَبَلُ الْمُحِيطُ بِأَصْبَهَانَ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ، وَيَخْرُجُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ السَّابِعِ فَيَحِيطُ بِبِلَادِ الْهُلُسِ مِنْ شَرْقِهَا وَتَحْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانُ ثُمَّ قُمْ، وَيَنْعَطِفُ فِي قُرْبِ النُّصَفِ مِنْ طَرَفِهِ مُعَرَّبًا بَعْضُ الشَّيْءِ؛ ثُمَّ يَزُجُّ مُسْتَدِيرًا فَيَذْهَبُ مُشْرِقًا وَمُنْحَرَفًا إِلَى الشَّمَالِ، حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى مُنْعَطِفِهِ وَاسْتِدَارَتِهِ عَلَى بَلَدِ الرَّيِّ فِي شَرْقِيَّةِ، وَيَبْدَأُ مِنْ مُنْعَطِفِهِ جَبَلٌ آخَرُ يَمُرُّ غَرْبًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ، وَمِنْ جَنْبِهِ مِنْ هُنَالِكَ قَرْوَيْنَ، وَمِنْ جَانِبِهِ الشَّمَالِيِّ وَجَانِبِ جَبَلِ الرَّيِّ الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ، ثُمَّ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ بِلَادُ طَبْرِشْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبْرِشْتَانَ. وَيَدْخُلُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي هَذَا الْجُزْءِ، فِي نَحْوِ النُّصَفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِيَّةِ، وَيَغْتَرِضُ عِنْدَ جَبَلِ الرَّيِّ. وَعِنْدَ انِعْطَافِهِ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ مُشْرِقًا وَبَانْحِرَافٍ قَلِيلٍ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ. وَيَنْفَقِي بَيْنَ جَبَلِ الرَّيِّ وَهَذَا الْجَبَلِ مِنْ عِنْدَ مَبْدَأَيْهِمَا بِلَادُ جُزْجَانَ فِيمَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَمِنْهَا بِسْطَامُ. وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارَسَ وَخُرَاسَانَ وَهِيَ فِي شَرْقِيَّةِ قَاشَانَ، وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بَلَدُ أَسْتَرَابَادَ. وَحَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ مِنْ شَرْقِيَّةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ نِسَابُورَ مِنْ خُرَاسَانَ. وَفِي جَنْبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ بَلَدُ نِسَابُورَ ثُمَّ مَزُو الشَّاهِجَانِ آخِرُ الْجُزْءِ. وَفِي شِمَالِهِ وَشَرْقِيَّةِ جُزْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ وَخَازَرُونَ وَطُوسَ آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا. وَكُلُّ هَذِهِ تَحْتَ الْجَبَلِ. وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا بِلَادُ نَسَا؛ وَيَحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجَزَائِنِ الشَّمَالِي وَالشَّرْقِيِّ مَفَاوِزُ مُعْطَلَّةٌ.

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي غَرْبِيَّةِ نَهْرٍ جَيِّحُونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ. وَفِي عُذَوْتِهِ الْعَرَبِيَّةِ رَمٌّ وَأَمْلٌ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ، وَالظَّاهِرِيَّةُ وَالْجُرْجَانِيَّةُ مِنْ بِلَادِ خُوارِزْمَ. وَيَحِيطُ بِالزَّوَايَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلٌ أَسْتَرَابَادَ الْمُعْتَرِضُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ قِبْلَهُ، وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيَّةِ وَيَحِيطُ بِهِذِهِ الزَّوَايَةِ، وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ، وَيَمُرُّ الْجَبَلُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ بَيْنَ هَرَاةَ وَالْجُزْجَانِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ الْبِثْمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَالِكَ. وَفِي شَرْقِيَّةِ نَهْرٍ جَيِّحُونَ مِنْ

هذا الجزء وفي الجنوب منه بلادُ بُخارى ثم بلادُ الصُّغْدِ وقاعدتها سَمَرْقَنْدُ ثم بلادُ أَشروسَنَ ومنها خَجَنْدَةُ آخرُ الجزء شرقاً. وفي الشَّمالِ عن سَمَرْقَنْدَ وَأَشروسَنَ أرضُ إِيلَاقَ. ثم في الشَّمالِ عن إِيلَاقَ أرضُ الشَّاشِ إلى آخرِ الجزء شرقاً، ويأخذُ قِطْعَةً من الجزء التاسع في جنوبِ تلكِ القِطْعَةِ بَقِيَّةَ أرضِ فَرغانَةِ، ويَخْرُجُ من تلكِ القِطْعَةِ الَّتِي في الجزء التاسعِ نَهْرُ الشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضاً في الجزء الثَّامِنِ إلى أَنْ يَنْصَبَّ في نهرِ جَيْتُحُونٍ عندَ مَخْرَجِهِ من هذا الجزء الثَّامِنِ في شمالِهِ إلى الإقليمِ الخامسِ. ويختلطُ معه في أرضِ إِيلَاقَ نَهْرٌ يَأْتِي من الجزء التاسعِ من الإقليمِ الثَّالثِ من تَحْوِمِ بلادِ التَّتَبْتِ؛ ويختلطُ معه قَبْلَ مَخْرَجِهِ من الجزء التاسعِ نَهْرُ فَرغانَةِ. وعلى سَمْتِ نهرِ الشَّاشِ جَبَلُ جَبْراغُونٍ، يَبْدَأُ من الإقليمِ الخامسِ وَيَنْعَطِفُ شَرْقاً وَمُنْحَرَفاً إلى الجنوبِ حتَّى يَخْرُجَ إلى الجزء التاسعِ مُحِيطاً بِأَرْضِ الشَّاشِ، ثم يَنْعَطِفُ في الجزء التاسعِ فَيُحِيطُ بِالشَّاشِ وَفَرغانَةَ هُنَاكَ إلى جنوبِهِ فَيَدْخُلُ في الإقليمِ الثَّالثِ. وَيَبِينُ نَهْرُ الشَّاشِ وَطَرَفُ هَذَا الجَبَلِ في وَسْطِ الجزءِ بلادُ فارابَ. وَيَبِينُهُ وَبَيْنَ أرضِ بُخارى وَخُوارزَمَ مَفاوِزُ مَعطَلَّةٌ. وفي زاوِيَةِ هذا الجُزءِ من الشَّمالِ وَالشَّرْقِ أرضُ خُجَنْدَةِ وفيها بلدُ إِسْبِيجابَ وَطَرَارُ.

وفي الجزءِ التاسعِ من هذا الإقليمِ في غَرْبِهِ بعدَ أرضِ فَرغانَةَ وَالشَّاشِ أرضُ الحَزَلْجِيَّةِ في الجنوبِ وَأَرْضُ الخَلِيجِيَّةِ في الشَّمالِ. وفي شَرْقِ الجزءِ كُلِّهِ أرضُ الكِيماكِيةِ. وَيَتَّصِلُ في الجزءِ العاشرِ كُلُّهُ إلى جَبَلٍ قَوْعِياً آخرِ الجزءِ شرقاً وعلى قِطْعَةٍ من البحرِ المحِيطِ هُنَاكَ، وَهُوَ جَبَلُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ. وهذه الأُمَمُ كُلُّها من شعوبِ التُّوكِ، انتهى.

الإقليم الخامس

الجزءُ الأوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَغْمُورٌ بِالماءِ إِلَّا قَلِيلاً من جنوبِهِ وَشَرْقِهِ لَأَنَّ البَحْرَ المُحِيطَ بِهِذِهِ الجِهَةِ الغَرْبِيَّةِ دَخَلَ في الإقليمِ الخامسِ وَالسَّادِسِ وَالسَّابِعِ عن الدَّائِرَةِ المُحِيطَةِ بِالْإقليمِ. فَأَمَّا الْمُتَشَكِّفُ مِنْ جنوبِهِ فَقِطْعَةٌ على شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُتَّصِلَةٍ مِنْ هُنَاكَ بِالْأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا. وَيُحِيطُ بِهَا البَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَأَنَّهُمَا ضِلْعَانِ مُحِيطَانِ بِزاوِيَةِ المُثَلَّثِ، فَفيها من بَقِيَّةِ غُوبِ الْأَنْدَلُسِ سَعِيورٌ على البَحْرِ عِنْدَ أوَّلِ الجُزءِ مِنَ الجنوبِ والغَرْبِ، وَسَلَمَنْكَةُ شَرْقاً عنها، وفي

جوفها سَمُورَةٌ. وفي الشَّرْقِ عن سَلَمَنْكَةَ أَبْلَةٌ آخِرِ الجنوبِ، وَأَرْضُ قَشْتَالَةَ شَرْقًا عَنْهَا، وفيها مَدِينَةُ شَقُونِيَّةَ. وفي شَمَالِهَا أَرْضُ لِيُونَ وَبَرْعَشْتُ، ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي الشَّمَالِ أَرْضُ جَلِيقِيَّةَ إِلَى زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ. وفيها على الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي آخِرِ الضَّلْعِ الْغَرْبِيِّ بَلَدٌ شَتِيافُو، وَمَغْنَاهُ يَعْقُوبُ. وفيها مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةُ شَيْطَلِيَّةَ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ وَشَرْقًا عَنْ قَشْتَالَةَ. وفي شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشَقَّةٌ وَيَنْبَلُونَةُ عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشَمَالًا. وفي غَرْبِ يَنْبَلُونَةَ قَشْتَالَةُ ثُمَّ نَاجِرَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْعَشْتِ. وَيَعْرِضُ وَسَطَ هَذِهِ الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَاضٍ لِلْبَحْرِ وَلِلضَّلْعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى قُرْبٍ، وَيَتَّصِلُ بِهِ وَبَطَرْفِ الْبَحْرِ عِنْدَ يَنْبَلُونَةَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ أَنَّ يَتَّصِلَ فِي الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ، وَيَصِيرُ حَجَرًا^(١) عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَتَنَائِيًا لَهَا أَتَوَاتٍ تُفْضِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَّةَ مِنْ أَمَمِ الْفَرَنْجِ. فَمِنْهَا مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ بَرْشَلُونَةُ وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ، وَخَرِيدَةُ وَقَرْشُونَةُ وَرَاءَهُمَا فِي الشَّمَالِ. وَمِنْهَا مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ طَلُوشَةُ شَمَالًا عَنْ خَرِيدَةَ. وَأَمَّا الْمُتَكَشِّفُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ الْحَادَةُ وَرَاءَ الْبُرْزَانِ شَرْقًا. وفيها على الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ الْبُرْزَانِ بَلَدٌ نَبُونَةُ. وفي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي التَّاجِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ بَنْطُو مِنَ الْفَرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ. وفي الْجُزْءِ الثَّانِي فِي التَّاجِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَرْضُ غَشْكُونِيَّةَ، وفي شَمَالِهَا أَرْضُ بَنْطُو وَبَرْعَشْتُ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُمَا. وفي شَرْقِ بِلَادِ غَشْكُونِيَّةَ فِي شَمَالِهَا قِطْعَةٌ أَرْضٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالضُّرْسِ مَائِلَةً إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلًا، وَصَارَتْ بِلَادُ غَشْكُونِيَّةَ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةً فِي جُودٍ مِنَ الْبَحْرِ. وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ شَمَالًا بِلَادُ جَنَوَةَ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلُ نَيْتِ جُونِ. وفي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ بَرْغُونَةَ. وفي الشَّرْقِ عَنْ طَرْفِ جَنَوَةَ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلُ نَيْتِ جُونِ. وفي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ بَرْغُونَةَ. وفي الشَّرْقِ عَنْ طَرْفِ جَنَوَةَ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ طَرْفٌ آخَرُ خَارِجٌ مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُونٌ دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ فِي غَرْبِهِ نَيْشُ وَفِي شَرْقِهِ مَدِينَةُ رُومَةَ الْعُظْمَى كُرْدِسِيُّ مَلِكِ الْإِفْرَنْجَةِ وَمَسْكُنُ الْبَابَا بِطَرِكِهِمُ الْأَعْظَمِ. وفيها مِنَ الْمَبَانِي الصُّخْمَةِ وَالْهَيْكَلِ الْهَائِلَةِ وَالْكَنَائِسِ الْعَادِيَّةِ^(٢) مَا هُوَ مَعْرُوفٌ الْأَخْبَارِ. وَمِنْ

(١) يريد أن تلك الصخور تصبح حاجزًا مانعًا.

(٢) الكنائس العادية: نسبة إلى عاداء مما يدل على قدمها وعظمتها.

عجائبها التَّهْرُ الجاري في وَسَطِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَفْرُوش قَاعُهُ بِبِلَاطِ الثُّحَاسِ،
وفيهَا كَنِيسَةٌ بِطَرَسَ وَبُولَسَ مِنَ الْخَوَارِيسِ وَهُمَا مَدْفُونَانِ بِهَا. وفي الشَّامِ عَنِ بِلَادِ رُومَةَ
بِلَادُ أَقْرَنْصِصَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ. وعلى هَذَا الطَّرَفِ مِنَ الْبَحْرِ الَّذِي فِي جَنُوبِهِ رُومَةُ بِلَادُ نَابِلِ
فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ قُلُورِيَّةَ مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ. وفي شَمَالِهَا طَرَفٌ مِنْ خَلِيجِ
الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْجُزْءِ الثَّالِثِ مُعَرَّبًا وَمُحَادِيَا لِلشَّامِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ، وَانْتَهَى
إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْهُ، وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جَنُوبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ. وفي شَمَالِهِ بِلَادُ أَنْكِلَايَةَ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ.

وفي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بِلَادُ قُلُورِيَّةَ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ
يُحِيطُ بِهَا مِنْ شَرْقِيَّةِ يَوْصِلُ مِنْ بَرِّهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي جَوْنٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ
خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ عَلَى سَمْتِ الشَّامِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ. وفي شَرْقِيَّ بِلَادِ قُلُورِيَّةَ بِلَادُ أَنْكِيرَدَةَ فِي
جَوْنٍ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ، وَيَدْخُلُ طَرَفٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي الْجَوْنِ فِي الْإِقْلِيمِ
الرَّابِعِ وَفِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ. وَيُحِيطُ بِهِ فِي شَرْقِيَّةِ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى
سَمْتِ الشَّامِ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْغَرْبِ مُحَادِيَا لِآخِرِ الْجُزْءِ الشَّامِيِّ. وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مِنَ
الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُوَارِيهِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ فِي الشَّامِ، ثُمَّ يَغْرُبُ مَعَهُ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ
إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ قُبَالَهَ خَلِيجٌ فِي شَمَالِيهِ فِي بِلَادِ إِنْكِلَايَةَ مِنْ أُمَمِ اللَّمَّائِيِّينَ كَمَا نَذَرُ. وعلى هَذَا
الْخَلِيجِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ مَا دَامَا ذَاهِبَيْنِ إِلَى الشَّامِ بِلَادُ الْبِنَادِقَةِ، فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى الْمَغْرِبِ
فَبَيْنَهُمَا بِلَادُ خَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادُ الْأَلْمَائِيِّينَ عِنْدَ طَرَفِ الْخَلِيجِ.

وفي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ
مُضْرَسَةً كُلُّهَا يَقْطَعُ مِنَ الْبَحْرِ. وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّامِ وَبَيْنَ كُلِّ ضِرْسَيْنِ مِنْهَا طَرَفٌ مِنَ
الْبَحْرِ فِي الْجَوْنِ بَيْنَهُمَا، وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا قِطْعٌ مِنَ الْبَحْرِ. وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّامِ خَلِيجُ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الطَّرَفِ الْجَنُوبِيِّ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِ الشَّامِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي
الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، وَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ عَنْ قُورٍ مُشْرِقًا إِلَى بَحْرِ نِيطَشَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ
وَبَقِضِ الرَّابِعِ قَبْلَهُ، وَالسَّادِسِ بَعْدَهُ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذَرُ. وَبِلَادُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي
شَرْقِيَّ هَذَا الْخَلِيجِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّامِ. وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ كُرْسِيِّ
الْقِيَاصِرَةِ وَبِهَا مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَالضَّخَامَةِ مَا كَثُرَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ. وَالْقِطْعَةُ الَّتِي مَا بَيْنَ الْبَحْرِ
الرُّومِيِّ وَخَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ، وَفِيهَا بِلَادُ مَقْدُونِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لِّلْيُونَانِيِّينَ وَمِنْهَا

ابتداءً مُلكِهِمْ. وفي شرقي هذا الخَلِيجِ إلى آخرِ الجُزءِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ بَاطُوسَ، وَأَظْهَرُ لِهَذَا الْعَهْدِ مَجَالَاتُ لِلتُّرْكَمَانِ، وَبِهَا مُلْكُ ابْنِ عُثْمَانَ وَقَاعِدَتُهُ بِهَا بَرَصَةٌ؛ وَكَانَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ لِلرُّومِ وَغَلِبَهُمْ عَلَيْهَا الْأُمَمُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِلتُّرْكَمَانِ.

وفي الجُزءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ أَرْضُ بَاطُوسَ، وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزءِ بِلَادُ عَمُورِيَّةَ، وَفِي شَرْقِي عَمُورِيَّةَ نَهْرُ قَبَاقِبِ الَّذِي يَمُدُّ الْفُرَاتَ؛ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى يُخَالِطَ الْفُرَاتَ قَبْلَ وَصُولِهِ مِنْ هَذَا الْجُزءِ إِلَى مَمَرِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ. وَهُنَالِكَ فِي غَرْبِهِ آخِرُ الْجُزءِ فِي مَبْدَأِ نَهْرِ سَيْحَانَ ثُمَّ نَهْرُ جَيْحَانَ غَرْبِيهِ الدَّاهِيَتَيْنِ عَلَى سَمِيَّتِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُمَا. وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ مَبْدَأُ نَهْرِ الدَّجَلَةِ الذَّاهِبِ عَلَى سَمِيَّتِهِ، وَفِي مُوَازَاتِهِ حَتَّى يُخَالِطَهُ عِنْدَ بَغْدَادَ. وَفِي الزَّوَايَةِ الَّتِي بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزءِ وَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ دِجْلَةَ بَلَدُ مِثَافَرِقِينَ. وَنَهْرُ قَبَاقِبِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَقْسِمُ هَذَا الْجُزءَ بِقِطْعَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا غَرْبِيَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ وَفِيهَا أَرْضُ بَاطُوسَ كَمَا قُلْنَا، وَأَسَافِلُهَا إِلَى آخِرِ الْجُزءِ شَمَالًا، وَوَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ قَبَاقِبِ أَرْضُ عَمُورِيَّةَ كَمَا قُلْنَا؛ وَالْقِطْعَةُ الثَّانِيَةُ شَرْقِيَّةٌ شَمَالِيَّةٌ عَلَى الثَّلَاثِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهَا مَبْدَأُ الدَّجَلَةِ وَالْفُرَاتِ، وَفِي الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَيْلِقَانِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ عَمُورِيَّةَ مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ قَبَاقِبِ، وَهِيَ غَرِيضَةٌ، وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ مَبْدَأِ الْفُرَاتِ بَلَدُ خَرْشَنَةَ. وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نَيْطُشِ الَّذِي يُمِدُّ خَلِيجَ الْفُسْطَاطِينِيَّةِ.

وفي الجُزءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي جَنُوبِهِ وَغَرْبِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةَ مُتَّصِلَةٌ إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَ وَسَطَ الْجُزءِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ. وَفِيهَا بَلَدُ أَرْدُنُّ فِي الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَفِي شَمَالِهَا تَقْلَيْسُ وَدُبَيْلُ. وَفِي شَرْقِ أَرْدُنُّ مَدِينَةُ خِلَاطَ ثُمَّ بَرْدَعَةُ، وَفِي جَنُوبِهَا بَانَحْرَافُ إِلَى الشَّرْقِ مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةَ. وَمِنْ هُنَالِكَ مَخْرَجُ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ. وَفِيهَا هُنَالِكَ بَلَدُ الْمَرَاغَةِ فِي شَرْقِي جَبَلِ الْأَكْرَادِ الْمُسَمَّى بِأَرْمَى، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فِي الْجُزءِ السَّادِسِ مِنْهُ. وَيُنَاجِمُ بِلَادَ أَرْمِينِيَّةَ فِي هَذَا الْجُزءِ وَفِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ قِبْلَةُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فِيهَا بِلَادُ أَدْرِيَجَانَ، وَآخِرُهَا فِي هَذَا الْجُزءِ شَرْقًا بِلَادُ أَرْدَبِيلَ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبْرِشْتَانَ دَخَلَتْ فِي التَّاجِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزءِ السَّابِعِ، وَيُسَمَّى بَحْرُ طَبْرِشْتَانَ. وَعَلَيْهِ مِنْ شَمَالِهِ فِي هَذَا الْجُزءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخَزَرِ وَهُمْ التُّرْكَمَانُ. وَيَبْدَأُ مِنْ عِنْدِ آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ فِي الشَّمَالِ جِبَالٌ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى سَمِيَّتِ الْغَرْبِ إِلَى الْجُزءِ الْخَامِسِ، فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةً وَمُحِيطَةً بِبَلَدِ مِثَافَرِقِينَ. وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ أَمِدَ، وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ السُّلَيْسِيَّةِ فِي أَسَافِلِ الشَّامِ، وَمِنْ هُنَالِكَ يَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْكُكَّامِ كَمَا

مَرَّ. وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ الشَّمَالِيَّةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ ثَنَايَا كَالْأَبْوَابِ تُفْضِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ. ففِي جَنُوبِهَا بِلَادُ الْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةٌ فِي الشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ، وَعَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ مَدِينَةُ بَابِ الْأَبْوَابِ. وَتَتَّصِلُ بِلَادُ الْأَبْوَابِ فِي الْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِهَا بِبَلَدِ أَرْمِينِيَّةَ. وَبَيْنَهُمَا فِي الشَّرْقِ وَبَيْنَ بِلَادِ أَدْرِيَجَانَ الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادُ الرَّابِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ. وَفِي شَمَالِ هَذِهِ الْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا مَمْلَكَةُ السَّرِيرِ فِي الزَّوَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا. وَفِي زَاوِيَةِ الْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضًا مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ الَّذِي يُمِدُّهُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ. وَيَحِفُّ بِهِذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ بِلَادُ السَّرِيرِ وَعَلَيْهَا مِنْهَا بَلَدُ أَطْرَابَرْزِيْدَةَ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ السَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ شَرْقًا إِلَى جَبَلٍ حَاجِزٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ. وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صَوْلَ. وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ الْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ تَنْتَهِي إِلَى الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ وَآخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا.

وَالْجُزْءُ السَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَرْبِيَّةُ كُلِّهِ مَعْمُورٌ بِبَحْرِ طَبْرِسْتَانَ، وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا هُنَالِكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلَادُ طَبْرِسْتَانَ، وَجِبَالُ الدَّيْلَمِ إِلَى قَزْوِينَ. وَفِي غَرْبِيِّ تِلْكَ الْقِطْعَةِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ. وَتَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِيَّةِ أَيْضًا. وَيَنْكَشِفُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرٌ أَثَلُ فِي هَذَا الْبَحْرِ. وَبَيْنَهُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي نَاحِيَةِ الشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ هِيَ مَجَالَاتُ لِلْغُرِّ مِنْ أَمَمِ الثُّرُكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ، وَيَذْهَبُ فِي الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسَطِهِ فَيَنْتَعِطِفُ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَلَاقِيَ بَحْرَ طَبْرِسْتَانَ فَيَخْتَفِ بِهَ ذَاهِبًا مَعَهُ إِلَى بَقِيَّةِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، ثُمَّ يَنْتَعِطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُفَارِقُهُ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ جَبَلُ سِيَاهِ، وَيَذْهَبُ مُغْرَبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ. وَهَذَا الطَّرْفُ مِنْهُ هُوَ الَّذِي اعْتَزَّضَ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ أَرْضِ السَّرِيرِ وَأَرْضِ الْخَزَرِ. وَاتَّصَلَتْ بِأَرْضِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ حَاقَاتُ هَذَا الْجَبَلِ الْمُسَمَّى جَبَلُ سِيَاهَ كَمَا سَيَأْتِي.

وَالْجُزْءُ الثَّامِنُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كُلُّهُ مَجَالَاتُ لِلْغُرِّ مِنْ أَمَمِ الثُّرُكِ؛ وَفِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةٌ خَوَارِزْمَ الَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ جِيْعُونَ؛ دَوْرُهَا ثَلَاثُمِائَةِ مِيلٍ، وَيَصُبُّ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ. وَفِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةٌ عَزُوعُونَ؛ دَوْرُهَا أَرْبَعُمِائَةِ مِيلٍ؛ وَمَاوُهَا حُلُوفٌ. وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ جَبَلُ مِرْغَارِ، وَمَعْنَاهُ

جَبَلُ التَّلْجِ لِأَنَّهُ لَا يَذُوبُ فِيهِ، وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِآخِرِ الْجُزْءِ. وَفِي الْجَنُوبِ عَنْ بُحَيْرَةِ عَرَعُونَ جَبَلٌ مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ لَا يُنْبِتُ شَيْئًا يُسَمَّى عَرَعُونَ وَبِهِ سُمِّيَتِ الْبُحَيْرَةُ. وَيَنْجَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلٍ مِرْعَارَ شِمَالِي الْبُحَيْرَةِ أَنْهَارٌ لَا تَنْحَصِرُ عِدَّتُهَا فَتَضُبُّ فِيهَا مِنَ الْجَانِبَيْنِ.

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ أَرْكَسَ مِنْ أَمَمِ التُّوْكِ فِي غَرْبِ بِلَادِ الْعَزِّ وَشَرْقِ بِلَادِ الْكِيْمَاكِئَةِ. وَيَحِفُّ بِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ آخِرُ الْجُزْءِ جَبَلٌ قَوْيَا الْمُحِيطُ بِتَأْجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ، يَغْتَرِضُ هُنَالِكَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَنْعَطِفَ أَوَّلُ دُخُولِهِ مِنَ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ، وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ قَبْلَهُ وَاحْتَفَّ هُنَالِكَ بِالْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ، ثُمَّ انْعَطَفَ مُغْرَبًا فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ، وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا بِلَادِ الْكِيْمَاكِئَةِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ؛ فَذَهَبَ فِيهِ مُغْرَبًا إِلَى آخِرِهِ، وَبَقِيََتْ فِي جَنُوبِيهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ بِلَادِ الْكِيْمَاكِئَةِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي شَرْقِيهِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْهُ وَانْعَطَفَ قَرِيبًا إِلَى الشَّمَالِ وَذَهَبَ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ. وَفِيهِ الشَّدُّ هُنَالِكَ كَمَا نُكِّرُهُ. وَبَقِيََتْ مِنْهُ الْقِطْعَةُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلٌ قَوْيَا عِنْدَ الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْجَنُوبِ، وَهِيَ مِنْ بِلَادِ تَأْجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ.

وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ أَرْضُ تَأْجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ كُلُّهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَمَرَتْ طَرَفًا فِي شَرْقِيهِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شِمَالِهِ، وَإِلَّا الْقِطْعَةُ الَّتِي يَفْصِلُهَا إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ جَبَلٌ قَوْيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ، وَمَا يَبْوَى ذَلِكَ قَارِضُ تَأْجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

الْإِقْلِيمُ السَّادِسُ

فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ غَمَرَتْ الْبَحْرُ أَكْثَرُ مِنْ نِصْفِهِ وَاسْتَدَارَ شَرْقًا مَعَ التَّاجِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ، ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ التَّاجِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى الْجَنُوبِ وَانْتَهَى قَرِيبًا مِنَ التَّاجِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ، فَانْكَشَفَتْ قِطْعَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْجُزْءِ دَاخِلَةٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ كَالْجَوْنِ فِيهِ، وَيَنْفَسِخُ طَوْلًا وَعَرْضًا، وَهِيَ كُلُّهَا أَرْضُ بَرِيطَانِيَّةٍ. وَفِي بَابِهَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ صَاقِسَ مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ بَنْطُو الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالتَّانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ.

والجزء الثاني من هذا الإقليم دَخَلَ البحر المحيط من غَرِبِهِ وَشَمَالِهِ، فَمِنْ غَرِبِهِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ أَكْبَرُ مِنْ نِصْفِهِ الشَّمَالِيِّ مِنْ شَرْقِ أَرْضِ بَرِيطَانِيَّةٍ فِي الْجَزْءِ الْأَوَّلِ، وَاتَّصَلَتْ بِهَا الْقِطْعَةُ الْأُخْرَى فِي الشَّمَالِ مِنْ غَرِبِهِ إِلَى شَرْقِهِ، وَانْفَسَحَتْ فِي النُّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ، وَفِيهِ هُنَالِكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ إِنْكَلْتَرَةَ، وَهِيَ جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مُتَّسِعَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مُدُنٍ وَبِهَا مُلْكٌ ضَخْمٌ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ. وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَجَزِيرَتِهَا فِي النُّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ بِلَادُ أَرْمُونِيَّةٍ، وَبِلَادُ أَفْلَادَشَ مُتَّصِلِينَ بِهَا، ثُمَّ بِلَادُ إِفْرَنْسِيَّةٍ جَنُوبًا وَغَرْبًا مِنْ هَذَا الْجَزْءِ، وَبِلَادُ بَزْغُونِيَّةٍ شَرْقًا عَنْهَا، وَكُلُّهَا لِأَمَمِ الْأَفْرَنْجِيَّةِ، وَبِلَادُ اللَّمَانِيِّينَ فِي النُّصْفِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجَزْءِ. فَجَنُوبُهُ بِلَادُ أَنْكِلَايَةَ ثُمَّ بِلَادُ بَزْغُونِيَّةٍ شَمَالًا ثُمَّ أَرْضُ لَهَوِيكَةَ وَشَطُونِيَّةَ. وَعَلَى قِطْعَةِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي الزَّوَايَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ أَفْرِيرَةَ وَكُلُّهَا لِأَمَمِ اللَّمَانِيِّينَ.

وَفِي الْجَزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي التَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ بِلَادُ مَرَاتِيَّةٍ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ سَطُونِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ. وَفِي التَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ بِلَادُ أَنْكُوِيَّةٍ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ بَلُونِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ، يَغْتَرِضُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بُلُوطٌ دَاخِلًا مِنَ الْجَزْءِ الرَّابِعِ وَيَمُرُّ مُغْرُبًا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ، أَنْ يَقِفَ فِي بِلَادِ سَطُونِيَّةٍ آخِرَ النُّصْفِ الْغَرْبِيِّ.

وَفِي الْجَزْءِ الرَّابِعِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ أَرْضُ جَثُولِيَّةٍ. وَتَحْتَهَا فِي الشَّمَالِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ. وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بُلُوطٌ مِنْ أَوَّلِ الْجَزْءِ غَرْبًا إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي النُّصْفِ الشَّرْقِيِّ. وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَثُولِيَّةِ بِلَادُ جَزْمَانِيَّةٍ. وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ الْقَشْطَطُنِيَّةِ، وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ الْخَلِيجِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ، وَعِنْدَ مَدْفَعِهِ ^(١) فِي بَحْرِ نِيطَشْ؛ فَيَقَعُ قُطْبُوعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطَشْ فِي أَعَالِي التَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ، وَيُمَدُّهَا الْخَلِيجُ وَبَيْنَهُمَا فِي الزَّوَايَةِ بَلَدٌ مَسِينَاهُ.

وَفِي الْجَزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، ثُمَّ فِي التَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ عِنْدَ بَحْرِ نِيطَشْ يَنْصِلُ مِنَ الْخَلِيجِ فِي آخِرِ الْجَزْءِ الرَّابِعِ، وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مُشْرِقًا فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجَزْءِ كُلِّهِ، وَفِي بَعْضِ السَّادِسِ عَلَى طَوْلِ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدَئِهِ فِي غَرْضِ سِتْمَائَةِ مِيلٍ. وَيَتَقَى وَرَاءَ هَذَا الْبَحْرِ فِي التَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ فِي غَرْبِهَا إِلَى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ فِي غَرِبِهِ هَرَقْلِيَّةٌ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ نِيطَشْ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ الْبَيْلِقَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ. وَفِي شَرْقِهِ بِلَادُ اللَّانِيَّةِ

(١) عند مدفعه : أي عند خروجه .

وقَاعِدَتْهَا سَوْتَلِي عَلَى بَحْرِ نِيطَشْ. وَفِي شَمَالِ بَحْرِ نِيطَشْ فِي هَذَا الْجُزْءِ غَرْبًا أَرْضُ تَرْخَانَ وَشَرْقًا بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَكُلُّهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ. وَبِلَادُ الرُّوسِيَّةِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تَرْخَانَ مِنْ شَرْقِهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهَا فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَمِنْ غَرْبِهَا فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ.

وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ بَحْرِ نِيطَشْ، وَيَنْحَرِفُ قَلِيلًا إِلَى الشَّمَالِ، وَيَبْقَى بَيْنَهُ هُنَالِكَ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا بِلَادُ قُمَانِيَّةَ، وَفِي جَنْبِهِ مُنْفَسِحًا إِلَى الشَّمَالِ بِمَا انْحَرَفَ هُوَ كَذَلِكَ بَقِيَّةُ بِلَادِ اللَّايِنَةِ الَّتِي كَانَتْ آخِرَ جَنْبِهِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ. وَفِي التَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مُتَّصِلُ أَرْضِ الْخَزَرِ. وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ بَرْطَاسَ، وَفِي الزَّائِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بُلْغَارَ. وَفِي الزَّائِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنْبِيَّةِ أَرْضُ بَلْجَرِ يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلِ سِيَاهِ كُوهِ الْمُتْعَطِفِ مَعَ بَحْرِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ بَعْدَهُ، وَيَذْهَبُ بَعْدَ مَفَارِقَتِهِ مُغْرَبًا فَيَجُوزُ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ، وَيَدْخُلُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِجَبَلِ الْأَبْوَابِ وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ نَاحِيَةُ بِلَادِ الْخَزَرِ.

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي التَّاحِيَةِ الْجَنْبِيَّةِ مَا جَارَهُ جَبَلُ سِيَاهِ بَعْدَ مَفَارِقَتِهِ بَحْرَ طَبْرِشْتَانَ. وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ غَرْبًا. وَفِي شَرْقِهَا الْقِطْعَةُ مِنْ بَحْرِ طَبْرِشْتَانَ الَّتِي يَجُوزُهَا هَذَا الْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا. وَوَرَاءَ جَبَلِ سِيَاهِ فِي التَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسَ. وَفِي التَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ شَحْرَبَ وَيَخْنَاكَ وَهُمْ أُمَّةُ التُّرْكِ.

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَالتَّاحِيَةِ الْجَنْبِيَّةِ مِنْهُ كُلُّهَا أَرْضُ الْجَوْلُخِ مِنَ التُّرْكِ فِي التَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ غَرْبًا، وَالْأَرْضُ الْمُثَنِّيَّةُ، وَشَرْقُ الْأَرْضِ الَّتِي يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَّبَاهَا قَبْلَ بِنَاءِ الشَّدِّ. وَفِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُثَنِّيَّةِ مَبْدَأُ نَهْرِ الْأَثَلِ مِنْ أَكْثَرِ أَنْهَارِ الْعَالَمِ وَمَمَرُهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ وَمَصْبُؤُهُ فِي بَحْرِ طَبْرِشْتَانَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ. وَهُوَ كَثِيرُ الْإِنْعِطَافِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ الْمُثَنِّيَّةِ مِنْ ثَلَاثَةِ يَنَابِيعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ إِلَى آخِرِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ، فَيَنْعَطِفُ شَمَالًا إِلَى الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ، فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ؛ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ السَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُغْرَبًا غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى الْجَنُوبِ، وَيَزْجَعُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدُولٌ يَذْهَبُ مُغْرَبًا وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ نِيطَشْ فِي ذَلِكَ الْجُزْءِ، وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ فِي بِلَادِ بُلْغَارَ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً إِلَى

الجنوب، وَيَتَقَدُّ فِي جَبَلِ سِيَاءَ وَيَمُتُّ فِي بِلَادِ الْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ، فَيَصُطُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ فِي الْقِطْعَةِ الَّتِي انْكَشَفَتْ مِنَ الْجُزْءِ عِنْدَ الزَّائِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ.

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَفْشَاخَ مِنَ التُّرْكِ وَهُمْ قَفْجَاقُ، وَبِلَادُ الشُّرُكْسِ مِنْهُمْ أَيْضًا. وَفِي الشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ قَوْيَا الْمُحِيطُ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ، يَبْدَأُ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي شَرْقِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى آخِرِ الْإِقْلِيمِ فِي الشَّمَالِ، وَيُفَارِقُهُ مُعَرَّبًا وَبَانْجِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، فَيَرْجِعَ إِلَى سَمْتِهِ الْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ بَانْجِرَافٍ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَفِي وَسْطِهِ هَهُنَا السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْإِسْكََنْدَرُ، ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْهُ، فَيَمُتُّ فِيهِ إِلَى الْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ فِي شَمَالِهِ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَالِكَ مُعَرَّبًا إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ، فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي غَرْبِهِ. وَفِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ هُوَ السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْإِسْكََنْدَرُ كَمَا قُلْنَا. وَالصَّحِيحُ مِنْ خَبَرِهِ فِي الْقُرْآنِ ^(١)؛ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ خُرْدَاذَبَةَ فِي كِتَابِهِ فِي الْجُغَرَايَا أَنَّ الْوَائِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ السُّدَّ انْفَتَحَ فَانْتَبَهَ فَرَعَا، وَبَعَثَ سَلَامًا لِلتُّرُجْمَانِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَجَاءَ بِخَبَرِهِ، وَوَصَفَهُ فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هَذَا.

وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ مَأْجُوجَ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَالِكَ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةٌ فِي الشَّمَالِ وَعَرِيضَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الشَّرْقِ.

(١) جاء ذكر الإسكندر وعمله هذا في القرآن الكريم، في قوله تعالى من سورة الكهف: ﴿قَالُوا يَنْذِ الْأَنْزِلِينَ﴾ [الكهف: ٩٤]

والإسكندر رجل صالح من عباد الله، وهو غير الإسكندر المقدوني.

الإقليم السابع

وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ قَدْ غَمَرَ عَائِنُهُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِجَبَلٍ قَوْيَا الْمُحِيطِ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ.

فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي مَغْمُورَانِ بِالْمَاءِ إِلَّا مَا انْكَشَفَ مِنْ جَزِيرَةٍ إِنَّكَلْتَرَةَ الَّتِي مُغْطَمُهَا فِي الثَّانِي. وَفِي الْأَوَّلِ مِنْهَا طَرَفٌ انْعَطَفَ بِانْجِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ، وَيَقِيشُهَا مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ مُسْتَدِيرَةً عَلَيْهِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ. وَالْمَجَارُ مِنْهَا إِلَى الْبَرِّ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ سَعَةٌ اثْنِي عَشَرَ مِيلًا. وَوَرَاءَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ فِي شَمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي جَزِيرَةُ رَسْلَانْدَةَ مُسْتَطِيلَةٌ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ.

وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَكْثَرُهُ بِالْبَحْرِ إِلَّا قِطْعَةً مُسْتَطِيلَةً فِي جَنُوبِهِ وَتَتَّسِعُ فِي شَرْقِهَا، وَفِيهَا هُنَاكَ مُتَّصِلُ أَرْضِ فَلُونِيَّةَ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الثَّالِثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَأَنَّهَا فِي شَمَالِهَا وَفِي الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الَّتِي تَغْمُرُ هَذَا الْجُزْءَ. ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا مُسْتَدِيرَةٌ فَسِيحَةٌ، وَتَتَّصِلُ بِالْبَرِّ مِنْ بَابٍ فِي جَنُوبِهَا يُفْضِي إِلَى بِلَادِ فَلُونِيَّةَ. وَفِي شَمَالِهَا جَزِيرَةٌ بِوَقَاعَةٍ مُسْتَطِيلَةٌ مَعَ الشَّمَالِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ.

وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ شَمَالُهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِالْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ، وَجَنُوبُهُ مُنْكَشِفٌ، وَفِي غَرْبِهِ أَرْضٌ قِيْمَارَكَ مِنَ التُّرْكِ، وَفِي شَرْقِهَا بِلَادُ طَسْتْ، ثُمَّ أَرْضُ رَسْلَانْدَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا، وَهِيَ دَائِمَةُ التَّلُوجِ وَغُمْرَانُهَا قَلِيلٌ. وَتَتَّصِلُ بِبِلَادِ الرُّوسِيَّةِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مِنْهُ.

وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي التَّاجِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَيَنْتَهِي فِي الشَّمَالِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلٌ قَوْيَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ. وَفِي التَّاجِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلُ أَرْضِ الْقِمَانِيَّةِ الَّتِي عَلَى قِطْعَةٍ بَحْرٍ نِيطَشْ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، وَيَنْتَهِي إِلَى بُحَيْرَةِ طُومِي مِنْ هَذَا الْجُزْءِ، وَهِيَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ عَنِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ. وَفِي شَمَالِ التَّاجِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ التَّارِيَّةِ مِنَ التُّرْكُمَانِ إِلَى آخِرِهِ.

وفي الجزء السادس من التاجية الغربية الجنوبية مُتَّصِلُ بلاد القماينية، وفي وَسَطِ التاجية بُحَيْرَةُ عَثُورَ عَذْبَةٍ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ فِي التَّوَاحِي الشَّرْقِيَّةِ، وَهِيَ جَامِدَةٌ دَائِمًا لِشِدَّةِ الْبُرْدِ إِلَّا قَلِيلًا فِي زَمَنِ الصَّيْفِ. وفي شَرْقِ بلادِ القماينية بلادُ الروسِيَّةِ الَّتِي كَانَ مَبْدُؤُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ فِي التَّاجِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ، وَفِي الزَّوَايَةِ، الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَارِ الَّتِي كَانَ مَبْدُؤُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ. وَفِي التَّاجِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ، وَفِي وَسَطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَارِ مُنْعَطَفُ نَهْرٍ أَثَلُ، الْقِطْعَةُ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ. وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ يَحْنَاكَ مِنْ أَمَمِ التُّوْك. وَكَانَ مَبْدُؤُهَا مِنَ التَّاجِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ قَبْلَهُ، وَفِي التَّاجِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ. وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ. وَفِي التَّاجِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ سُخْرَبْ ثُمَّ بَقِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُتَنِيَّةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا. وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلٌ قَوْيَا الْمُحِيطُ مُتَّصِلًا مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ.

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم في الجنوبية الغربية منه مُتَّصِلُ الْأَرْضِ الْمُتَنِيَّةِ. وَفِي شَرْقِهَا الْأَرْضُ الْمَخْفُورَةُ، وَهِيَ مِنَ الْعَجَائِبِ: خَزَقٌ عَظِيمٌ فِي الْأَرْضِ بَعِيدُ الْمَهْوَى فَسِيحُ الْأَقْطَارِ مُمْتَنِعُ الْوُصُولِ إِلَى قَعْرِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى عُثْرَانِهِ بِالْذُّحَانِ فِي النَّهَارِ وَالتَّيْرَانِ فِي اللَّيْلِ تُضِيءُ وَتَخْفِي. وَرُبَّمَا رُؤِيَ فِيهَا نَهْرٌ يَشْقُهَا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ. وَفِي التَّاجِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الْبِلَادُ الْخَرَابُ الْمُتَاخِمَةُ لِلْسُدِّ. وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلٌ قَوْيَا مُتَّصِلًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلادُ خَفْشَاخَ وَهُمْ قَفْجَقُ يَجُوزُهَا جَبَلٌ قَوْيَا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شَمَالِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسْطِهِ إِلَى الْجَنُوبِ بِأَنْحَرَاكِ إِلَى الشَّرْقِ، فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِيهِ. وَفِي وَسْطِهِ هُنَالِكَ سَدٌّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ. وَفِي التَّاجِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجُ وَرَاءَ جَبَلٍ قَوْيَا عَلَى الْبَحْرِ قَلِيلَةُ الْغَرَضِ مُسْتَطِيلَةٌ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ. وَالْجُزْءُ الْعَاشِرُ عَمَرَ الْبَحْرِ جَمِيعُهُ.

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى الْجُغْرَافِيَا وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [الزوم: ٢٢].

المقدمة الثالثة

في لمعدل من الأقاليم والمنحرف وأنشأ الهواء في ألوان البشر واللشير من أهرالهم

قد بينّا أنّ المعمور في هذا المُنْكَشِف من الأرض إنّما هو وَسْطُهُ لإفراط الحرّ في الجنوبِ منه والبرود في الشمالِ. ولَمّا كَانَ الجانيانِ من الشمالِ والجنوبِ مُتَضَادَّيْنِ في الحرّ والبرود، وَجِبَ أَنْ تَتَدَرَّجَ الكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسْطِ فَيَكُونَ مُعْتَدِلًا. فالإقليمُ الرَّابِعُ أَعْدَلُ الْعُمَرَانِ وَالَّذِي حَافَاتُهُ مِنَ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى الْاِغْتِدَالِ، وَالَّذِي يَلِيهِمَا مِنَ الثَّانِي وَالسَّادِسِ بَعِيدَانِ مِنَ الْاِغْتِدَالِ. وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ؛ فَلِهَذَا كَانَتْ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَالْمَبَانِي وَالْمَلَابِيسُ وَالْأَقْوَاتُ وَالْفَوَاكِهُ بَلِّ وَالْحَيَوَانَاتُ، وَجَمِيعُ مَا يَتَكَوَّنُ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ مَخْصُوصَةً بِالْاِغْتِدَالِ. وَسُكَّانُهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَالْوَنَاءُ وَأَخْلَاقًا وَأَذْيَانًا، حَتَّى الثِّبَوَاتُ فَإِنَّمَا تَوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ فِيهَا. وَلَمْ نَقِفْ عَلَى خَبَرٍ بِغَنَّةٍ فِي الْأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ النَّوْعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وَذَلِكَ لِيَتِمَّ الْقَبُولُ لِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لُجُودِ الْاِغْتِدَالِ لَهُمْ؛ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِينِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ، يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ الْمُتَّحِذَةَ بِالْجِجَارَةِ، الْمُتَمَكِّةَ بِالصَّنَاعَةِ؛ وَيَتَنَاعَوْنَ فِي اسْتِجَادَةِ الْآلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ؛ وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ. وَتَوْجَدُ لَدَيْهِمْ الْمَعَادِينُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ وَالرُّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ. وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ بِالْقَدَرِ الْعَزِيزِ^(١). وَيَتَعَدُّونَ عَنِ الْاِنْحِرَافِ فِي عَائَةِ أَخْوَالِهِمْ. وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْجِجَارِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقِ وَالْهِنْدِ وَالسُّنْدِ وَالصِّينِ، وَكَذَلِكَ الْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قُرْبَ مِنْهَا مِنَ الْفَرَنْجَةِ وَالْجَلَالِقَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيِّينَ، وَمَنْ كَانَ مَعَ هَؤُلَاءِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ. وَلِهَذَا كَانَ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَعْدَلُ هَذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسْطُ

(١) التقدين العزيزين: الذهب والفضة.

من جميع الجهات. وَأَمَّا الْأَقَالِيمُ البعيدة من الاعتدال؛ مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم. فَبِنَاؤُهُمْ بِالطِّينِ وَالْقَصَبِ، وَأَقْوَاتُهُمْ مِنَ الذُّرَّةِ وَالْعُشْبِ، وَمَلَابِسُهُمْ مِنْ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ أَوْ الْجُلُودِ، وَأَكْثَرُهُمْ عَرَايا مِنَ اللَّبَاسِ، وَفَوَاكِهِ بِلَادِهِمْ وَأَذْمُهَا غَرِيبَةُ التَّكْوِينِ مَائِلَةٌ إِلَى الانْحِرَافِ. وَمُعَامَلَاتُهُمْ بِغَيْرِ الْحَجَرَيْنِ^(١) الشَّرِيفَيْنِ مِنْ نَحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جُلُودٍ يُقَدِّرُونَهَا لِلْمُعَامَلَاتِ. وَأَخْلَافُهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خُلُقِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ. حَتَّى لَيُنْقَلُ عَنِ الْكَثِيرِ مِنَ السُّودَانِ أَهْلُ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْكُهُوفَ وَالْغِيَاضَ، وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ، وَأَنَّهُمْ مُتَوَحِّشُونَ غَيْرَ مُسْتَأْنِسِينَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ وَكَذَا الصَّقَالِبَةُ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الْاعتِدَالِ يَقْرُبُ عَرْضُ أَمْرَجِيَّتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ عَرْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ، وَيَتَعَدُونَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمِقْدَارِ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي الدِّيَانَةِ أَيْضًا؛ فَلَا يَعْرِفُونَ نَبْوَةَ وَلَا يَدِينُونَ بَشَرِيَّةَ، إِلَّا مِنْ قُرْبِ مَنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ الْاعتِدَالِ، وَهُوَ فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ مِثْلُ الْحَبَشَةِ الْمُحَاوِرِينَ لِلْيَمَنِ الدَّائِينَ بِالنُّصْرَانِيَّةِ فِيمَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ؛ وَمِثْلُ أَهْلِ مَالِي وَكوكو وَالتَّكُرُورِ الْمُجَاوِرِينَ لَأَرْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائِينَ بِالْإِسْلَامِ لِهَذَا الْعَهْدِ، يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي الْمَائَةِ السَّابِعَةِ؛ وَمِثْلُ مَنْ دَانَ جَنُوبًا وَشَمَالًا، فَالَّذِينَ مَجْهُولٌ عَنْدهُمْ وَالْعِلْمُ مَفْقُودٌ بَيْنَهُمْ، وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْبَهَائِمِ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [التحل: ٨] وَلَا يَغْتَرَضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بِوُجُودِ الْيَمَنِ وَخَضْرَمُوتَ وَالْأَحْقَافِ وَبِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهَا مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي؛ فَإِنَّ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا الْبِحَارُ مِنْ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا؛ فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي رُطُوبَةِ هَوَائِهَا؛ فَتَقْصُ ذَلِكَ مِنَ الْيَبَسِ وَالْانْحِرَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَرُّ، وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ الْاعتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ الْبَحْرِ. وَقَدْ تَوَهَّمُ بَعْضُ النَّسَّابِينَ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِطَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ أَنَّ السُّودَانَ هُمْ وَلَدُ حَامِ بْنِ نُوحٍ اخْتَصُّوا بِلَوْنِ السَّوَادِ لِدَعْوَةِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ وَفِيمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الرِّقِّ فِي عَقِبِهِ؛ وَيَتَقَلَّبُونَ فِي ذَلِكَ حِكَايَةً مِنْ خُرَافَاتِ الْقَصَاصِ. وَدُعَاءُ نُوحٍ عَلَى ابْنِهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ السَّوَادِ وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ عَبِيدًا لَوْلَدِ إِخْوَتِهِ لَا غَيْرِ. وَفِي الْقَوْلِ يَنْسَبَةُ السَّوَادِ إِلَى حَامٍ غَفْلَةٌ مِنْ طَبِيعَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَأَثَرِهِمَا فِي الْهَوَاءِ وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ. وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا اللَّوْنَ شَمَلَ أَهْلَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ لِلْحَرَارَةِ الْمُتَضَاعِفَةِ بِالْجَنُوبِ؛

(١) الْحَجَرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ: الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ.

فَإِنَّ الشَّمْسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، قَرِيبَةً إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى، فَتَطُولُ الْمُسَامَتَةُ عَامَّةَ الْفُصُولِ، فَيَكْثُرُ الضَّوُّ لِأَجْلِهَا وَيُلْحَقُ الْقَيْطُ الشَّدِيدُ عَلَيْهِمْ وَتَشَوَّدُ جُلُودُهُمْ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ. وَنَظِيرُ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ مِمَّا يُقَابِلُهُمَا مِنَ الشَّمَالِ الْإِقْلِيمُ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ. شَمَلَ سُكَّانُهُمَا أَيْضًا الْبَيَاضُ مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ لِلْبُرْدِ الْمُفْرِطِ بِالشَّمَالِ؛ إِذِ الشَّمْسُ لَا تَرَالُ بِأَفْقِهِمْ فِي دَائِرَةِ مَرْئِي الْعَيْنِ أَوْ مَا قَرُبَ مِنْهَا وَلَا تَرْتَفِعُ إِلَى الْمُسَامَتَةِ وَلَا مَا قَرُبَ مِنْهَا، فَيَضَعُفُ الْحَرُّ فِيهَا، وَيَسْتَدُ الْبُرْدُ عَامَّةَ الْفُصُولِ، فَتَبْيِضُ أَلْوَانُ أَهْلِهَا وَتَنْتَهِي إِلَى الرُّعُورَةِ. وَيَنْبَغُ ذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ مِزَاجُ الْبُرْدِ الْمُفْرِطِ مِنْ رُزْقَةِ الْعُيُونِ وَبَرَشِ الْجُلُودِ وَضَهْوِيَّةِ^(١) الشُّعُورِ. وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا الْأَقَالِيمُ الثَّلَاثَةُ: الْخَامِسُ وَالرَّابِعُ وَالثَّالِثُ؛ فَكَانَ لَهَا فِي الْاِغْتِدَالِ الَّذِي هُوَ مِزَاجُ الْمُتَوَسِّطِ حَظٌّ وَافِرٌ. وَالرَّابِعُ أَبْلَغُهَا فِي الْاِغْتِدَالِ غَايَةً لِنِهَازِيهِ فِي التَّوَسُّطِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ. فَكَانَ لِأَهْلِهِ مِنَ الْاِغْتِدَالِ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ مَا اقْتَضَاهُ مِزَاجُ أَهْوِيَّتِهِمْ. وَتَبَعَهُ عَنْ جَانِبَيْهِ الثَّالِثُ وَالْخَامِسُ وَإِنْ لَمْ يَتَلْعَا غَايَةَ التَّوَسُّطِ، لِمَعْلٍ هَذَا قَلِيلًا إِلَى الْجَنُوبِ الْحَارِّ، وَهَذَا قَلِيلًا إِلَى الشَّمَالِ الْبَارِدِ؛ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى الْأَنْجَرِافِ. وَكَانَتِ الْأَقَالِيمُ الْأَرْبَعَةُ مُنْحَرِفَةً وَأَهْلُهَا كَذَلِكَ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ. فَلِأَوَّلُ وَالثَّانِي لِلْحَرِّ وَالشَّوَادِ، وَالسَّابِعُ وَالسَّادِسُ لِلْبُرْدِ وَالْبَيَاضِ. وَيُسَمَّى سُكَّانُ الْجَنُوبِ مِنَ الْإِقْلِيمَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي بِاسْمِ الْحَبَشَةِ وَالزَّنَجِ وَالسُّودَانِ، أَسْمَاءُ مُتَرَادِفَةً عَلَى الْأُمَمِ الْمُتَغَيَّرَةِ بِالسَّوَادِ، وَإِنْ كَانَ اسْمُ الْحَبَشَةِ مُخْتَصًّا مِنْهُمْ بِمَنْ تَجَاهَ مَكَّةَ وَالْيَمَنَ، وَالزَّنَجِ بِمَنْ تَجَاهَ بَحْرَ الْهِنْدِ. وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى آدَمِيٍّ أَسْوَدَ لَا حَامٍ وَلَا غَيْرِهِ. وَقَدْ نَجَدُ مِنَ السُّودَانِ أَهْلَ الْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ الرَّابِعَ الْمُغْتَدِلَ أَوْ السَّابِعَ الْمُنْحَرِفَ إِلَى الْبَيَاضِ، فَتَبْيِضُ أَلْوَانُ أَغْضَابِهِمْ عَلَى التَّدْرِيجِ مَعَ الْأَيَّامِ. وَبِالْعَكْسِ فَيَمَنْ يَسْكُنُ مِنْ أَهْلِ الشَّمَالِ أَوْ الرَّابِعِ بِالْجَنُوبِ، تَشَوَّدُ أَلْوَانُ أَغْضَابِهِمْ. وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّوْنَ تَابِعٌ لِمِزَاجِ الْهَوَاءِ. قَالَ ابْنُ سِينَا فِي أَرْجُوزَتِهِ فِي الطُّبِّ:

بِالزَّنَجِ حَرٌّ غَيْرُ الْأَجْسَادِ حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادًا

وَالصُّقْلُبُ اكْتَسَبَتِ الْبَيَاضَ حَتَّى غَدَتْ جُلُودَهَا بَضَاضًا^(٢)

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّمَالِ فَلَمْ يُسَمَّوْا بِاِغْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ لِأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ اللَّغَةِ الْوَاضِعَةِ لِلْأَسْمَاءِ. فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى اِغْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ وَاعْتِيَادِهِ. وَوَجَدْنَا

(٢) بضاضا : نقيه ، من شدة البياض .

(١) صهوية الشعور : الشعور الشفراء .

سُكَّانُهُ مِنَ الثَّوَكِ وَالصَّقَالِيَةِ وَالطُّغُوغِرِ وَالْحَزَرِ وَاللَّانِ، وَالكَثِيرُ مِنَ الْإِفْرَنْجَةِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ،
أَسْمَاءٌ مُتَفَرِّقَةٌ وَأَجْيَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءٍ مُتَنَوِّعَةٍ. وَأَمَّا أَهْلُ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ، أَهْلُ
الْاِعْتِدَالِ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ وَسَيْرِهِمْ، وَكَافَّةُ الْأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْاِعْتِمَارِ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ
وَالْمَسَاكِينِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرِّيَاسَاتِ وَالْمُلُكِ، فَكَانَتْ فِيهِمْ الثَّبَوَاتُ وَالْمُلُكُ وَالذُّوُلُ
وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ
الْمُغْتَدِلَةِ. وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي وَقَفْنَا عَلَى أَخْبَارِهِمْ؛ مِثْلُ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ وَبَنِي
إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ وَأَهْلُ السُّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ. وَلَمَّا رَأَى النَّسَابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأُمَمِ بِسِمَاتِهَا
وَشِعَارِهَا حَسِبُوا ذَلِكَ لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ: فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ مِنْ وَلَدِ حَامٍ
وَارْتَابُوا فِي أَلْوَانِهِمْ، فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ بَلَدِ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ؛ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ
مِنْ وَلَدِ يَافَثَ؛ وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُغْتَدِلَةِ وَأَهْلَ الْوَسْطِ الْمُتَحَلِّينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْمِلَالِ وَالشَّرَائِعِ
وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلُكِ مِنْ وَلَدِ سَامٍ. وَهَذَا الرَّعْمُ وَإِنْ صَادَفَ الْحَقُّ فِي انْتِسَابِ هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ
بِقِيَاسٍ مُطَرِّدٍ؛ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ، لَا أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانِ وَالْجَبْشَانِ مِنْ
أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامِ الْأَسْوَدِ. وَمَا أَذَاهُمْ إِلَى هَذَا الْعَلَطِ إِلَّا اِعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَمِ
إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ: فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ أَوْ الْأُمَّةِ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ
كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفَرَسِ؛ وَيَكُونُ بِالْجِهَةِ وَالسَّمَةِ كَمَا لِلزَّنَجِ وَالْحَبَشَةِ وَالصَّقَالِيَةِ
وَالسُّودَانِ؛ وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالسَّعَارِ وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ؛ وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ
وَحَوَاصِّهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ. فَتَعْمِيمُ الْقَوْلِ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ شَمَالٍ بِأَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ
فُلَانٍ الْمَعْرُوفِ لَمَّا شَمَلَهُمْ مِنْ نِخْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وَجَدَتْ لِدَلِيلِكَ الْأَبِّ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ
الْأَعَالِيطِ الَّتِي أَوْقَعَ فِيهَا الْعَفْلَةُ عَنْ طَبَائِعِ الْأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ، وَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَبَدَّلُ فِي
الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ اسْتِمْرَارُهَا: سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ ﴿ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾
[الأحزاب: ٦٢]؛ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ؛ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعِمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ.

المقدمة الرابعة

في أثر الهواء في أخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ عَلَى الْعُمُومِ الْخِفَّةَ وَالطَّنِيشَ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ، فَتَجِدُهُمْ مُوَلَعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعٍ، مُؤَصِّفِينَ بِالْحُمُقِ فِي كُلِّ قُطْرٍ. وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْفَرَحِ وَالشُّرُورِ هِيَ انْتِشَارُ الرُّوحِ الْخَيَوَانِيِّ وَتَفَشُّيهِ، وَطَبِيعَةُ الْحُزَنِ بِالْعَكْسِ، وَهُوَ انْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ؛ وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ مُفَشِّئَةً لِلْهَوَاءِ وَالْبَخَارِ مُخْلِجَةً لَهُ زَائِدَةً فِي كَمِّيَّتِهِ. وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُتَشَبِّهِ مِنَ الْفَرَحِ وَالشُّرُورِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ؛ وَذَلِكَ بِمَا يُدَاخِلُ بُخَارَ الرُّوحِ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِي تَبْعُثُهَا سُورَةُ الْحَمْرِ فِي الرُّوحِ مِنْ مِزَاجِهِ، فَيَتَفَشَّى الرُّوحُ وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ الْفَرَحِ. وَكَذَلِكَ نَجِدُ الْمُتَنَعِّمِينَ بِالْحَمَامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا وَاتَّصَلَتْ حَرَارَةُ الْهَوَاءِ فِي أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لِذَلِكَ، حَدَثَ لَهُمْ فَرَحٌ، وَرُبَّمَا انْبَعَثَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِالْغِنَاءِ التَّائِبِيِّ عَنِ الشُّرُورِ. وَلَمَّا كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي الْإِقْلِيمِ الْحَارِّ وَاسْتَوَلَى الْحَرُّ عَلَى أَمْرَجِيَّتِهِمْ، وَفِي أَصْلِ تَكْوِينِهِمْ، كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ؛ فَتَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ بِالْقِيَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا فَتَكُونُ أَكْثَرَ تَفَشُّيًا، فَتَكُونُ أَشْرَعَ فَرَحًا وَسُرُورًا وَأَكْثَرَ انْبِسَاطًا، وَتَجِيءُ الطَّنِيشُ عَلَى أَثَرِ هَذِهِ؛ وَكَذَلِكَ يَلْحَقُ بِهِمْ قَلِيلًا أَهْلُ الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ، لِمَا كَانَ هَوَاؤُهَا مُتَضَاعِفَ الْحَرَارَةِ بِمَا يَتَعَكَّسُ عَلَيْهِ مِنْ أَضْوَاءِ بَسِيطِ الْبَحْرِ وَأَشْعَتِهِ، كَانَتْ حِصْنَتُهُمْ مِنْ تَوَابِعِ الْحَرَارَةِ فِي الْفَرَحِ وَالْخِفَّةِ مُوجُودَةً أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ الثَّلُولِ وَالْجِبَالِ الْبَارِدَةِ. وَقَدْ نَجَدُ يَسِيرًا مِنْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ لِتَوَقُّرِ الْحَرَارَةِ فِيهَا وَفِي هَوَائِهَا، لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْأَرْيَافِ وَالثَّلُولِ. وَاعْتَبَرِ ذَلِكَ أَيْضًا بِأَهْلِ مِصْرَ، فَإِنَّهَا فِي مِثْلِ عَرْضِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِينَا مِنْهَا، كَيْفَ غَلَبَ الْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَالْخِفَّةُ وَالْعَفْلَةُ عَنِ الْعَوَاقِبِ؛ حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَدَّخِرُونَ أَقْوَاتَ سَنَتِهِمْ وَلَا شَهْرِهِمْ، وَعَامَّةُ مَا يَكْلِمُهُمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ. وَلَمَّا كَانَتْ فَاِسُ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ بِالْعَكْسِ مِنْهَا فِي التَّوَعُّلِ فِي الثَّلُولِ الْبَارِدَةِ كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرِقِينَ إِطْرَاقَ الْحُزَنِ وَكَيْفَ أَفْرَطُوا فِي نَظَرِ الْعَوَاقِبِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدَّخِرُ قُوَّةَ سَنَتَيْنِ مِنْ لُحُوبِ الْجَنْطَةِ، وَيُيَاكِرُ الْأَشْوَاقَ لِشِرَاءِ قُوَّتِهِ لِيُؤْمِيَهِ مَخَافَةُ

أَنْ يُورَأَ^(١) شَيْئًا مِنْ مُدْخَرِهِ، وَتَتَّبِعَ ذَلِكَ فِي الْأَقَالِيمِ وَالْبُلْدَانِ تَجِدُ فِي الْأَخْلَاقِ أَثَرًا مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْهَوَاءِ. وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ.

وَقَدْ تَعَرَّضَ الْمَسْعُودِيُّ لِلْبَحْثِ عَنِ السَّبَبِ فِي خِفَّةِ السُّودَانِ وَطَيِّبِهِمْ وَكَثْرَةِ الطَّرَبِ فِيهِمْ، وَحَاوَلَ تَغْلِيلُهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسَ^(٢) وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيِّ أَنَّ ذَلِكَ لِيُضْعِفَ أَذْمِغَتَهُمْ، وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضَعْفِ عُقُولِهِمْ. وَهَذَا كَلَامٌ لَا مُحْصَلَ لَهُ وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأهملهم

اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَقَالِيمَ الْمُعْتَدِلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يَوْجَدُ بِهَا الْخِصْبُ وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فِي رَعْدٍ مِنَ الْعَيْشِ؛ بَلْ فِيهَا مَا يَوْجَدُ لِأَهْلِهِ خِصْبُ الْعَيْشِ، مِنَ الْحُبُوبِ وَالْأُذْمِ وَالْحِنْطَةِ وَالْفَوَاكِهِ لِزَكَاءِ الْمَنَابِتِ وَاعْتِدَالِ الطَّيْنَةِ وَوُفُورِ الْعُمُرَانِ؛ وَفِيهَا الْأَرْضُ الْحَرَّةُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ زَرْعًا وَلَا عُشْبًا بِالْجُمْلَةِ، فَسُكَّانُهَا فِي شَطَفٍ مِنَ الْعَيْشِ: مِثْلُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَجَنُوبِ الْيَمَنِ وَمِثْلُ الْمُتَلَمِّمِينَ مِنْ صَنْهَاجَةِ السَّاكِنِينَ بِصَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ وَأَطْرَافِ الرَّمَالِ فِيمَا بَيْنَ الْبِزْيَرِ وَالسُّودَانِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَفْقِدُونَ الْحُبُوبَ وَالْأُذْمَ جُمْلَةً، وَإِنَّمَا أَغْدِيَتُهُمْ وَأَقْوَاتُهُمُ الْأَلْبَانُ وَاللُّحُومُ؛ وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضًا الْجَائِلِينَ فِي الْقِفَارِ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْحُبُوبَ وَالْأُذْمَ مِنَ الثَّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَحْيَانِ وَتَحْتَ رِبْقَةٍ مِنْ حَامِيَّتِهَا، وَعَلَى الْإِفْقَالِ لِقَلَّةِ وَجْدِهِمْ، فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِّ الْخَلَّةِ^(٣) أَوْ دُونِهَا فَضْلًا عَنِ الرَّعْدِ وَالْخِصْبِ، وَتَجِدُهُمْ يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى الْأَلْبَانِ وَتَعَوُّضُهُمْ مِنَ الْحِنْطَةِ أَحْسَنَ مَعَاضٍ. وَتَجِدُ مَعَ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْفَائِدِينَ لِلْحُبُوبِ وَالْأُذْمِ مِنْ أَهْلِ الْقِفَارِ أَحْسَنَ حَالًا فِي جُسُومِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ الثَّلُولِ الْمُتَعَمِّسِينَ فِي الْعَيْشِ؛ فَالْوَأْنَةُ أَضْفَى؛ وَأَبْدَانُهُمْ أَتْقَى؛ وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ؛ وَأَخْلَاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنَ الْانْحِرَافِ؛

(١) يُورَأُ: يصاب بما يدخره فيخسره.

(٢) جَالِينُوسُ: عالم وطبيب مشهور من أطباء اليونان. (٣) سد الخلّة: سد الحاجة.

وَأَذْهَانُهُمْ أَثْقَبُ فِي الْمَعَارِفِ وَالْإِذْرَاكِاتِ. هَذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ التَّجَرِبَةُ فِي كُلِّ جِيلٍ مِنْهُمْ. فَكَثِيرٌ مَا يَتَنَّى الْعَرَبُ وَالْبِزْرَ فِيمَا وَصَفْنَاهُ؛ وَيَتَنَّى الْمُتَلَمِّمِينَ وَأَهْلَ الثَّلُولِ يَغْرِفُ ذَلِكَ مِنْ خَيْرِهِ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ كَثْرَةَ الْأَغْذِيَةِ وَكَثْرَةَ الْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ الْعَفِنَةِ وَرُطُوبَاتِهَا تُؤَلِّدُ فِي الْجِسْمِ فَضْلَاتٍ رَدِيئَةً يَنْشَأُ عَنْهَا بُغْدُ أَقْطَارِهَا فِي غَيْرِ نِسْبَةٍ، وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ انْكِسَافُ الْأَلْوَانِ^(١) وَقُبُحُ الْأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ كَمَا قُلْنَا، وَتُعْطِي الرُّطُوبَاتُ عَلَى الْأَذْهَانِ وَالْأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَدُ إِلَى الدِّمَاغِ مِنْ أَبْجَرَتِهَا الرَّدِيئَةِ، فَتَجِيءُ الْبَلَادَةُ وَالْعَقْلَةُ وَالْانْجِرَافُ عَنِ الْإِعْتِدَالِ بِالْجُمْلَةِ. وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي حَيَوَانِ الْقَفْرِ وَمَوَاطِنِ الْجَذْبِ مِنَ الْغَزَالِ وَالْتَّعَامِ وَالْمَهَا وَالزَّرَافَةِ وَالْخُمُرِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْبَقَرِ مَعَ امْتِثَالِهَا مِنْ حَيَوَانِ الثَّلُولِ وَالْأَرْيَافِ وَالْتَّرَاعِي الْحَصْبِيَّةِ كَيْفَ تَجِدُ بَيْنَهَا بَوْنًا بَعِيدًا فِي صَفَاءِ أَدِيمِهَا، وَحُسْنِ رَوْنِقِهَا وَأَشْكَالِهَا؛ وَتَنَاسُبِ أَعْضَائِهَا وَجِدَّةِ مَدَارِكِهَا. فَالْغَزَالُ أَخُو الْمَعِزِّ وَالزَّرَافَةُ أَخُو الْبَعِيرِ وَالْجِمَارُ وَالْبَقَرُ أَخُو الْجِمَارِ وَالْبَقَرُ وَالْبَوْنُ^(٢) بَيْنَهَا مَا رَأَيْتَ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَجْلِ أَنَّ الْخِصْبَ فِي الثَّلُولِ فَعَلَ فِي أَبْدَانِ هَذِهِ مِنَ الْفَضْلَاتِ الرَّدِيئَةِ وَالْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ؛ وَالْجَوْعُ لِحَيَوَانِ الْقَفْرِ حَسَنٌ فِي خَلْقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ. وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْآدَمِيِّينَ أَيْضًا: فَإِنَّا نَجِدُ أَهْلَ الْأَقَالِيمِ الْمُخَصَّصَةِ الْعَيْشِ الْكَثِيرَةِ الزَّرْعِ وَالصُّرْعِ وَالْأَذَمِ وَالْفَوَاكِهَ يَتَّصِفُ أَهْلُهَا غَالِبًا بِالْبَلَادَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَالْحُشُونَةِ فِي أَجْسَامِهِمْ. وَهَذَا شَأْنُ الْبِزْرِ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي الْأَذَمِ وَالْحَنْطَةِ، مَعَ الْمُتَقَشِّفِينَ فِي عَيْشِهِمْ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى الشَّعِيرِ أَوْ الذَّرَّةِ، مِثْلُ الْمَصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ غِمَارَةِ وَالسُّوسِ؛ فَتَجِدُ هَؤُلَاءِ أَحْسَنَ حَالًا فِي عُقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ. وَكَذَا أَهْلُ بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُتَغَمِّسُونَ فِي الْأَذَمِ وَالْبِزْرِ^(٣) مَعَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الْمَفْقُودِ بِأَرْضِهِمُ السَّمْنُ الْجُمْلَةَ. وَغَالِبُ عَيْشِهِمُ الذَّرَّةُ؛ فَتَجِدُ لِأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ ذِكَايَ الْعُقُولِ وَخِفَّةِ الْأَجْسَامِ وَقَبُولِ التَّعْلِيمِ مَا لَا يَوْجَدُ لِبَعِيرِهِمْ. وَكَذَا أَهْلُ الصَّوَاغِي مِنَ الْمَغْرِبِ بِالْجُمْلَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَضَرِ وَالْأَمْصَارِ. فَإِنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ وَإِنْ كَانُوا مُكْثَرِينَ مِثْلَهُمْ مِنَ الْأَذَمِ وَمُخَصَّصِينَ فِي الْعَيْشِ، إِلَّا أَنَّ اسْتِعْمَالَهُمْ إِيَّاهَا بَعْدَ الْعِلَاجِ بِالطَّبِخِ وَالتَّلْطِيفِ بِمَا يَخْلُطُونَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِدَلِكِ غِلْظُهَا وَيَرَقُّ قِوَامُهَا؛ وَعَامَّةٌ مَا كَلِمَتُهُمْ لِحُومِ الصَّانِ وَالِدَّجَاجِ، وَلَا يُعْطُونَ السَّمْنَ مِنْ بَيْنِ الْأَذَمِ لِنَفَاقَتِهِ؛ فَتَقِلُّ الرُّطُوبَاتُ لِدَلِكِ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَيَخِفُّ مَا تُؤَدِّيهِ إِلَى أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْفَضْلَاتِ الرَّدِيئَةِ. فَلِدَلِكِ تَجِدُ جُسُومَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ الطَّفَّ

(١) انكساف الألوان: أي تغيُّرها.

(٢) البون: المسافة. (٣) البز: القمح.

من جُسومِ أَهْلِ البَادِيَةِ الْمُخْشَنِينَ فِي الْعَيْشِ. وَكَذَلِكَ تَجِدُ الْمُعَوِّدِينَ بِالْجُوعِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لَا فَضْلَاتٍ فِي جُسُومِهِمْ غَلِيظَةً وَلَا لَطِيفَةً.

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَثَرَ هَذَا الْخِصْبِ فِي الْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ يَظْهَرُ حَتَّى فِي حَالِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ. فَتَجِدُ الْمُتَقَشِّفِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَوْ الْحَاضِرَةِ مِمَّنْ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْجُوعِ وَالتَّجَافِي عَنِ الْمَلَأِ أَحْسَنَ دِينًا وَإِقْبَالًا عَلَى الْعِبَادَةِ مِنْ أَهْلِ التَّرَفِ وَالْخِصْبِ. بَلْ تَجِدُ أَهْلَ الدِّينِ قَلِيلِينَ فِي الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ لِمَا يَعْمُهَا مِنَ الْقِسَاوَةِ وَالْعَفْلَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْإِكْتَارِ مِنَ اللَّحْمَانِ وَالْأَدَمِ وَلُبَابِ الْبَرِّ. وَيَخْتَصُّ وُجُودُ الْعُبَادِ وَالزُّهَادِ لِذَلِكَ بِالْمُتَقَشِّفِينَ فِي غِذَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبُؤَادِي. وَكَذَلِكَ تَجِدُ حَالَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ فِي ذَلِكَ مُخْتَلِفًا بِاخْتِلَافِ حَالِهَا فِي التَّرَفِ وَالْخِصْبِ. وَكَذَلِكَ تَجِدُ هَؤُلَاءِ الْمُخْصِبِينَ فِي الْعَيْشِ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي طَيِّبَاتِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَأَهْلِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ، إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ السَّنُونَ^(١) وَأَخَذَتْهُمْ الْمَجَاعَاتُ يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْهَلَاكُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، مِثْلُ بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِ مَدِينَةِ فَاسٍ وَمِصْرَ فِيمَا يَبْلُغُنَا، لَا مِثْلُ الْعَرَبِ أَهْلِ الْقَفْرِ وَالصَّخْرَاءِ، وَلَا مِثْلُ أَهْلِ بِلَادِ النَّحْلِ الَّذِينَ غَالِبَ عَيْشُهُمُ التَّمَرُ، وَلَا مِثْلُ أَهْلِ إِفْرِيقِيَّةَ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِينَ غَالِبَ عَيْشُهُمُ الشَّعِيرُ وَالزَّيْتُ، وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غَالِبَ عَيْشُهُمُ الذَّرَّةُ وَالزَّيْتُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ وَإِنْ أَخَذَتْهُمْ السَّنُونَ وَالْمَجَاعَاتُ فَلَا تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أَوْلِيكَ وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمُ الْهَلَاكُ بِالْجُوعِ بَلْ لَا يَنْدُرُ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي الْخِصْبِ، الْمُتَعَوِّدِينَ لِلْأَدَمِ وَالسَّمَنِ خُصُوصًا، تَكْتَسِبُ مِنْ ذَلِكَ أَمْعَاؤُهُمْ رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ الْمِزَاجِيَّةِ حَتَّى تُجَاوِزَ حَدَّهَا؛ فَإِذَا خُولِفَ بِهَا الْعَادَةُ بِقَلَّةِ الْأَقْوَاتِ وَفَقْدَانِ الْأَدَمِ وَاسْتِعْمَالِ الْخَشَنِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ مِنَ الْغِذَاءِ أَسْرَعَ إِلَى الْمَعْيِ الْيَبَسِ وَالْإِنْكِمَاشِ، وَهُوَ عُضْوٌ ضَعِيفٌ فِي الْغَايَةِ، فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَرَضُ وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَةً لِأَنَّهُ مِنَ الْمَقَاتِلِ. فَالْهَالِكُونَ فِي الْمَجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشَّبَعُ الْمُعْتَادُ السَّابِقُ لَا الْجُوعُ الْحَادِثُ اللَّاحِقُ. وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ لِلْعَيْمَةِ وَتَرَكَ الْأَدَمَ وَالسَّمَنِ فَلَا تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ الْأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ، وَهِيَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ الْأَغْذِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَلَا يَقَعُ فِي مِعَاهِمُ بَتَبْدُلِ الْأَغْذِيَةِ يَبَسٌ وَلَا انْحِرَافٌ، فَيَسْلَمُونَ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي يَعْرِضُ لِغَيْرِهِمْ بِالْخِصْبِ وَكَثْرَةِ الْأَدَمِ فِي الْمَأْكَلِ.

وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ أَنَّ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَغْذِيَةَ وَائْتِلَافَهَا أَوْ تَرَكَهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْعَادَةِ. فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ

(١) نزلت بهم السَّنُونَ: أَيِ حَلَّتْ بِهِمُ الْمَجَاعَاتُ مِنْ جُؤَاءِ الْقَحْطِ وَالْجَدْبِ.

غذاء ولآئمه تناوله كان له مألوفاً وصار الخروج عنه والتبدل به داء، ما لم يخرج عن عَرْض
الغذاء بالجملة كالشموم واليتوع^(١) وما أفرط في الانحراف. فأما ما وجد فيه التَّغْذِي
والملاءمة فيصير غذاء مألوفاً بالعادة. فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن والتقل عَوْضاً
عن الحنطة حتى صار له ذيدناً فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والخبوب من
غير شك. وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما يتقل عن أهل
الرياضات؛ فإننا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد يكرها من لا يعرفها. والسبب في
ذلك العادة؛ فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون؛ فإذا
حصل لها اعتياد الجوع بالتدرج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها. وما يتوهمه
الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة، وقطع
عنها الغذاء بالكليّة، فإنه حينئذ ينحسب المعى ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك. وأما
إذا كان ذلك القدر تدرجاً ورياضة بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً، كما يفعل المتصوفة، فهو
بمغزل عن الهلاك. وهذا التدرج ضروري في الرجوع عن هذه الرياضة. فإنه إذا رجع به إلى
الغذاء الأول دفعة خيف عليه الهلاك، وإنما يوجب به كما بدأ في الرياضة بالتدرج. ولقد
شاهدنا من يضرب على الجوع أربعين يوماً وصلاً وأكثر. وحضر أشياء بمجلس السلطان
أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورزدة حبستا أنفسهما عن الأكل
جملة منذ سنين، وشاع أمرهما ووقع اختيارهما فصع شأنهما، واتصل على ذلك حالهما إلى
أن ماتتا. ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على خليب شاة من المغز يلتقم نذيتها في
بعض النهار أو عند الإفطار، ويكون ذلك غذاءه، واستدام على ذلك خمس عشرة سنة
وغيرهم كثير؛ ولا يستنكر ذلك.

واعلم أن الجوع أصلح للبدين من إكثار الأغذية بكل وجه، لمن قدر عليه أو على الإقلال
منها، وأن له أثراً في الأجسام والعقول في صفاتها وصلاتها كما قلناه؛ واعتبر ذلك بآثار
الأغذية التي تحصل عنها في الجسوم. فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاجرة العظيمة
الجثمان تنشأ أجيالهم كذلك. وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة. وكذا
المتغذون باللبان الإبل ولحومها أيضاً، مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة
على حمل الأثقال الموجود ذلك للإبل، وتنشأ أمتاؤهم أيضاً على نسبة أمتاء الإبل في

(١) اليتوع: كل نبات له لبن داز، وهو جنس نبات من السوسنية أو الينوعات [الفاموس].

الصَّحَّةَ وَالْعَاطِظَ، فَلَا يَطْرُقُهَا الْوَهْنُ وَلَا الضَّعْفُ، وَلَا يَنَالُهَا مِنْ مَضَارِّ الْأَعْدِيَّةِ مَا يَنَالُ غَيْرُهُمْ فَيَشْرَبُونَ الشُّوْعَاتِ لَا سِتْطِلَاقٍ بُطُونُهُمْ غَيْرَ مَحْجُوبَةٍ، كَالْحَنْظَلِ قَبْلَ طَبِخِهِ وَالدَّرِيَّاسِ وَالْقَرْيُونِ^(١)، وَلَا يَنَالُ أَمْعَاءُهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ. وَهِيَ لَوْ تَنَاوَلَهَا أَهْلُ الْحَضَرِ الرَّقِيقَةُ أَمْعَاؤُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الْأَعْدِيَّةِ لَكَانَ الْهَلَاكُ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرْفَةِ الْعَيْنِ؛ لَمَا فِيهَا مِنَ السُّمِّيَّةِ. وَمِنْ تَأْثِيرِ الْأَعْدِيَّةِ فِي الْأَبْدَانِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْفِلَاحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ التَّجَرِبَةِ أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا غُذِّيَتْ بِالْحَبُوبِ الْمَطْبُوخَةِ فِي بَعْرِ الْإِبِلِ وَاتَّخَذَ يَبْضُهَا ثُمَّ حَصَنْتْ عَلَيْهِ جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ. وَقَدْ يَسْتَعْنُونَ عَنْ تَغْدِيَّتِهَا وَطَبَخِ الْحَبُوبِ بِطَرَحِ ذَلِكَ الْبَعْرِ مَعَ الْبَيْضِ الْمَحْضَنِ فَيَجِيءُ دَجَاجُهَا فِي غَايَةِ الْعَظَمِ. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ؛ فَإِذَا رَأَيْنَا هَذِهِ الْأَثَارَ مِنَ الْأَعْدِيَّةِ فِي الْأَبْدَانِ فَلَا شَكَّ أَنَّ لِلْجُوعِ أَيْضًا أَثَارًا فِي الْأَبْدَانِ؛ لِأَنَّ الصُّدَّيْنِ عَلَى نِسْبَةِ وَاحِدَةٍ فِي التَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ؛ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الْجُوعِ فِي نَقَاءِ الْأَبْدَانِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالرُّطُوبَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُخِلَّةِ بِالْجِسْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا كَانَ الْغِذَاءُ مُؤَثِّرًا فِي وُجُودِ ذَلِكَ الْجِسْمِ. وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ.

المقدمة السادسة

في أوصاف لدركين للغيب من لبشر بالفطرة أو بالرياضة

ويشتمل على الكلام في الوحي والرؤيا

اعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اضْطَفَى مِنَ الْبَشَرِ أَشْخَاصًا فَضَّلَهُمْ بِخَطَابِهِ ، وَفَطَرَهُمْ^(٢) عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، يُعَرِّفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ، وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ، وَيَأْخُذُونَ بِحُجْزَاتِهِمْ^(٣) عَنِ النَّارِ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ. وَكَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْأَخْبَارِ الْكَائِنَاتِ الْمُعَيَّنَةُ عَنِ الْبَشَرِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنَ اللَّهِ بِوَسَاطَتِهِمْ، وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ. قَالَ ﷺ: «أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ». وَاعْلَمَ أَنَّ خَبَرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ خَاصِّيَّتِهِ وَضُرُورَتِهِ الصَّدْقِ، لَمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ الثَّبُوتِ.

وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْبَشَرِ أَنَّ تَوَجَّدَ لَهُمْ فِي حَالِ الْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ الْحَاضِرِينَ

(١) الحنظل : نبات شديد المرارة، والدرياس . والقريون: نوع من النبت.

(٢) فطرهم: خلقهم . (٣) يحجزون بينهم وبين النار ، يبعدونهم عن النار .

عَطِيطٌ^(١) كَأَنَّهَا غَشِيَتْ أَوْ إِغْمَاءٌ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ؛ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِعْرَاقٌ فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ الرَّوْحَانِيِّ بِإِذْرَاكِهِمُ الْمُنَاسِبِ لَهُمُ الْخَارِجَ عَنْ مَدَارِكِ الْبَشَرِ بِالْكُلِّيَّةِ. ثُمَّ يَنْتَرِلُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ؛ إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيِّ مِنَ الْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ؛ أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ صُورُهُ شَخْصٌ يُخَاطِبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ الْحَالُ وَقَدْ وَعِيَ مَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ. قَالَ ﷺ، وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْوَحْيِ: «أَخْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلَاسَةِ الْحَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ؛ وَأَخْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ»^(٢). وَيُذَرِّكُهُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْعُطْ مَا لَا يُعْتَرِ عَنْهُ. فِي الْحَدِيثِ: «كَانَ مِمَّا يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً». وَقَالَتْ عَائِشَةُ: «كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينُهُ لَيَتَفَصَّدُ»^(٣) عَرَفًا^(٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الزمر: ٥]. وَلَا جَلَّ هَذِهِ الْحَالَةَ فِي تَنْزِيلِ الْوَحْيِ كَانَ الْمُشْرِكَونَ يَزْمُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْجُنُونِ، وَيَقُولُونَ: لَهُ رَئِي أَوْ تَابِعَ مِنَ الْجِنِّ. وَإِنَّمَا لُبَّسَ عَلَيْهِمُ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٣].

وَمِنْ غَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ يَوْجَدُ لَهُمْ قَبْلَ الْوَحْيِ خُلُقُ الْخَيْرِ وَالزُّكَاةِ وَمُجَانِبَةُ الْمَذْمُومَاتِ وَالزُّجُسِ أَجْمَعِ. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعِصْمَةِ. وَكَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى التَّنَزُّهِ عَنِ الْمَذْمُومَاتِ وَالْمُنَافَرَةِ لَهَا؛ وَكَأَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِجَبِلَّتِيَّةِ. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ حَمَلَ الْحِجَارَةَ وَهُوَ غُلَامٌ مَعَ عُمِّهِ الْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ، فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ، فَانْكَشَفَ، فَسَقَطَ مَعْشِيًا عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَتَرَ بِإِزَارِهِ؛ وَدُعِيَ إِلَى مُجْتَمَعِ وَلِيمَةٍ فِيهَا عُرْسٌ وَلَعِبَ فَأَصَابَهُ غَشِيَةُ النَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ يَحْضُرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ؛ بَلْ نَزَّهَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ؛ حَتَّى إِنَّهُ بِجَبِلَّتِيَّةِ يَنْتَرِهُ عَنِ الْمَطْعُومَاتِ الْمُشْتَكِرَةِ. فَقَدْ كَانَ ﷺ لَا يَقْرُبُ الْبِضَلِ وَالْثُومِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَا جِي مِنْ لَا تُنَاجُونَ».

وَانْظُرْ لِمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِحَالِ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَأَتْهُ وَأَرَادَتْ اخْتِبَارَهُ، فَقَالَتْ: «اجْعَلْنِي يَتْنَكَ وَيَتْنِ ثَوْبِكَ»؛ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ؛ فَقَالَتْ: «إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ»؛ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ. وَكَذَلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ الثِّيَابِ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا، فَقَالَ الْبَيَاضُ وَالْحُضْرَةُ، فَقَالَتْ إِنَّهُ الْمَلَكُ؛ يَعْنِي أَنَّ الْبَيَاضَ وَالْحُضْرَةَ مِنَ أَلْوَانِ الْخَيْرِ وَالْمَلَايِكَةِ، وَالسَّوَادُ مِنَ أَلْوَانِ الشَّرِّ وَالشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

(١) عَطِيط: نوم. (٢) البخاري في بدء الوحي رقم (٢)، والترمذي في المناقب رقم (٣٦٣٨).

(٣) يتفصد عرفاً: يتصب عرقاً.

(٤) البخاري في بدء الوحي رقم (٥) ومسلم في الصلاة رقم (٤٤٨).

ومن علاماتهم أيضًا دُعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف. وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ بذلك، وكذلك أبو بكر، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه. وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام أخضر من وجد يبلده من قرين، وفيهم أبو سفيان ليسألهم عن حاله، فكان فيما سأل أن قال: بم تأمركم؟ فقال أبو سفيان: بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابته، فقال: «إن يكن ما تقول حقًا فهو نبيّ وسيملك ما تحت قدمي هاتين». والعفاف الذي أشار إليه هرقل هو العصمة. فأنظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلًا على صحة نبوته، ولم يحتاج إلى معجزة. فدل على أن ذلك من علامات النبوة.

ومن علاماتهم أيضًا أن يكونوا ذوي حسب في قومهم. وفي الصحيح: «ما بعث الله نبيًا إلا في منعة من قومه»؛ وفي رواية أخرى «في نزوة من قومه»؛ استدركه الحاكم على الصحيحين وفي مسألة هرقل لأبي سفيان كما هو في الصحيح قال: «كيف هو فيكم؟»؛ قال أبو سفيان: «هو فينا ذو حسب»؛ فقال هرقل: «والرسل تبعث في أحساب قومها». ومنعناه أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه ومليته.

ومن علاماتهم أيضًا وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم؛ وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة، وليست من جنس مقدور العباد، وإنما تقع في غير محل قدرتهم. وللناس في كيفية وقوعها ودلائلها على تصديق الأنبياء خلاف.

فالمتمكلمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدره الله لا بفعل النبي، وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم. وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدّي بها بإذن الله؛ وهو أن يستدل بها النبي ﷺ قبل وقوعها على صدقه في مدّعه. فإذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق، وتكون دلائلها حبيذ على الصديق قطيعة. فالمعجزة دالة بمجموع الخارق والتحدّي؛ ولذلك كان التحدّي جزءًا منها: وعبارة المتكلمين «صفة نفسها» وهو واحد، لأنه معنى الذاتيين عندهم.

والتحدّي هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر، إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق، فلا وجود للتحدّي إلا إن وجد اتفاقًا. وإن وقع التحدّي في الكرامة عند من يجيزها وكانت لها

دَلَالَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى الْوِلَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ التَّبَوُّةِ. وَمِنْ هُنَا مَنَعَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ وَقَوْعَ الْخَوَارِقِ كَرَامَةً فِرَازًا مِنَ الْإِلْتِبَاسِ بِالتَّبَوُّةِ عِنْدَ التَّحْدِي بِالْوِلَايَةِ. وَقَدْ أَرَيْنَاكَ الْمُعَايِرَةَ بَيْنَهُمَا وَأَنَّهٗ يَتَّحَدَى بِغَيْرِ مَا يَتَّحَدَى بِهِ النَّبِيُّ، فَلَا لَبْسَ، عَلَى أَنَّ الثَّقَلَ عَنِ الْأُسْتَاذِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيحًا؛ وَرُبَّمَا حُمِلَ عَلَى إِنْكَارِ أَنْ تَقَعَ خَوَارِقُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ بِنَاءً عَلَى اخْتِصَاصِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ.

وَأَمَّا الْمُعْتَرِلَةُ فَالْمَانِعُ مِنْ وَقْعِ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْخَوَارِقَ لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَأَفْعَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ، فَلَا فَرْقَ.

وَأَمَّا وَقَوْعُهَا عَلَى يَدِ الْكَاذِبِ تَلْبِيسًا فَهُوَ مُحَالٌ. أَمَّا عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ فَلَأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ الْمُعْجِزَةِ التَّصْدِيقُ وَالْهُدَايَةُ، فَلَوْ وَقَعَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ انْقَلَبَ الدَّلِيلُ شُبْهَةً، وَالْهُدَايَةُ ضَلَالَةً، وَالتَّصْدِيقُ كَذِبًا، وَاسْتَحَالَتِ الْحَقَائِقُ، وَانْقَلَبَتِ النَّفْسُ؛ وَمَا يَلْزَمُ مِنْ فَرْضِ وَقْعِهِ الْمُحَالِ لَا يَكُونُ مُمَكِّنًا. وَأَمَّا عِنْدَ الْمُعْتَرِلَةِ فَلَأَنَّ وَقْعَ الدَّلِيلِ شُبْهَةً وَالْهُدَايَةُ ضَلَالَةً قَبِيحٌ فَلَا يَقَعُ مِنَ اللَّهِ.

وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ، وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِيجَابِ الدَّائِيَّ وَقَوْعِ الْخَوَارِقِ نَبْضُهَا عَنْ بَعْضِ مُتَوَقِّفٍ عَلَى الْأَسْبَابِ؛ وَالشُّرُوطُ الْحَادِثَةُ مُسْتَنِدَّةٌ أَحْيَرًا إِلَى الْوَاجِبِ الْفَاعِلِ بِالذَّاتِ لَا بِالِاخْتِيَارِ؛ وَأَنَّ النَّفْسَ التَّبَوُّيَّةَ عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصُّ ذَاتِيَّةٌ، مِنْهَا ضُدُورُ هَذِهِ الْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ وَطَاعَةُ الْعَنَاصِرِ لَهُ فِي التَّكْوِينِ. وَالنَّبِيُّ عِنْدَهُمْ مَجْبُولٌ عَلَى التَّصْرِيفِ^(١) فِي الْأَكْوَانِ مَهْمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَاسْتَجْمَعَ لَهَا بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ. وَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سَوَاءً أَكَانَ لِلتَّحْدِي أَوْ لَمْ يَكُنْ؛ وَهُوَ شَاهِدٌ بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دَلَالَتُهُ عَلَى تَصْرِيفِ النَّبِيِّ فِي الْأَكْوَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ التَّبَوُّيَّةِ لَا بِأَنَّهُ يَنْزِلُ مَنَزَلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ بِالتَّصْدِيقِ. فَلِذَلِكَ لَا تَكُونُ دَلَالَتُهَا عِنْدَهُمْ قَطْعِيَّةً كَمَا هِيَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ؛ وَلَا يَكُونُ التَّحْدِي جُزْءًا مِنَ الْمُعْجِزَةِ؛ وَلَمْ يَصْغُ فَارِقًا لَهَا عَنِ السَّحْرِ وَالْكَرَامَةِ. وَفَارِقُهَا عِنْدَهُمْ عَنِ السَّحْرِ أَنَّ النَّبِيَّ مَجْبُولٌ عَلَى أَفْعَالِ الْخَيْرِ مَضْرُوفٌ عَنْ أَفْعَالِ الشَّرِّ فَلَا يُلِمُّ الشَّرَّ بِخَوَارِقِهِ؛ وَالسَّاحِرُ عَلَى الضَّدِّ، فَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا شَرٌّ، وَفِي مَقَاصِدِ الشَّرِّ. وَفَارِقُهَا عَنِ الْكَرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ النَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ كَالضُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ، وَالتَّفَوُّذِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ، وَإِحْيَاءِ

(١) التصريف: التفويض.

الْمَوْتِ، وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ وَالطَّيْرَانِ فِي الْهَوَاءِ؛ وَخَوَارِقِ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَثَثِيرِ الْقَلِيلِ وَالْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ الْمُسْتَقْبَلِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَضْرِيفِ الْأَنْبِيَاءِ. وَيَأْتِي النَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ، وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ. وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَلَقَّنُوهُ عَمَّنْ أَخْبَرَهُمْ.

وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ الْمُعْجَزَاتِ وَأَشْرَفَهَا وَأَوْضَحَهَا دَلَالَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمُنَزَّلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ. فَإِنَّ الْخَوَارِقَ فِي الْغَالِبِ تَقَعُ مُغَايِرَةً لِلْوَخِيِّ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ النَّبِيُّ وَيَأْتِي بِالْمُعْجَزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ؛ وَالْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ الْوَخِيُّ الْمُدْعَى وَهُوَ الْخَارِقُ الْمُعْجَزُ؛ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ كَسَائِرِ الْمُعْجَزَاتِ مَعَ الْوَخِيِّ؛ فَهُوَ أَوْضَحُ دَلَالَةٍ لِاتِّحَادِ الدَّلِيلِ وَالْمَذْلُولِ فِيهِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَأُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ النَّبَشْرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُتِيَتهُ وَخِيًا أُوحِيَ إِلَيَّ. فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(١)؛ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُعْجَزَةَ مَتَى كَانَتْ بِهِدِ الْمَثَابَةِ فِي الْوُضُوحِ وَقُوَّةِ الدَّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسَ الْوَخِيِّ كَانَ الصُّدْقُ لَهَا أَكْثَرَ لَوْضُوحِهَا، فَكَثُرَ الْمُصَدِّقُ الْمُؤْمِنُ وَهُوَ التَّابِعُ وَالْأُمَّةُ.

نفسير حقيقة النبوة

ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين

ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرافين

وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

اعْلَمْ - أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّا نُشَاهِدُ هَذَا الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ مِنَ التَّرْتِيبِ وَالْإِحْكَامِ، وَرَبَطَ الْأَسْبَابَ بِالْمُسَبِّبَاتِ، وَاتَّصَلَ الْأَكْوَانُ بِالْأَكْوَانِ، وَاشْتَحَالَ بَعْضُ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ، لَا تَقْضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَلِكَ وَلَا تَنْتَهِي غَايَاتُهُ. وَأَبْدَأُ مِنْ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ الْجُمْئَانِيِّ. وَأَوَّلًا: عَالَمِ الْعَنَاصِرِ الْمُشَاهِدَةِ كَيْفَ تَدْرَجُ صَاعِدًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْمَاءِ ثُمَّ إِلَى الْهَوَاءِ ثُمَّ إِلَى النَّارِ مُتَّصِلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُشْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ

(١) البخاري في فضائل القرآن (٤٩٦٦)، ومسلم في الإيمان (١٥٢).

يَسْتَحِيلُ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَابِطًا، وَيَسْتَحِيلُ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ. وَالصَّاعِدُ مِنْهَا أَلْطَفُ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ الْأَفْلَاكِ وَهُوَ أَلْطَفُ مِنَ الْكُلِّ عَلَى طَبَقَاتِ اتِّصَلْ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يُدْرِكُ الْحِسُّ مِنْهَا إِلَّا الْحَرَكَاتِ فَقَطْ؛ وَبِهَا يَهْتَدِي بَعْضُهُمْ إِلَى مَغْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا وَأَوْضَاعِهَا، وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وُجُودِ الدَّوَاتِ الَّتِي لَهَا هَذِهِ الْأَثَارُ فِيهَا. ثُمَّ انْظُرْ إِلَى عَالَمِ التَّكْوِينِ كَيْفَ ابْتَدَأَ مِنَ الْمَعَادِنِ ثُمَّ النَّبَاتِ ثُمَّ الْحَيَوَانِ عَلَى هَيْئَةٍ بَدِيعَةٍ مِنَ التَّدرِجِ. آخِرُ أَفْقِ الْمَعَادِنِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلَ الْحَشَائِشِ، وَمَا لَا يَدْرُ لَهُ، وَآخِرُ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلُ النَّخْلِ وَالكَرْمِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ الْحَيَوَانِ مِثْلَ الْحَلَزُونِ وَالصَّدَفِ، وَلَمْ يَوْجَدْ لُهُمَا إِلَّا قُوَّةُ اللَّمْسِ فَقَطْ. وَمَعْنَى الْإِتِّصَالِ فِي هَذِهِ الْمَكُونَاتِ أَنَّ آخِرَ أَفْقِ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ بِالِاسْتِعْدَادِ الْغَرِيبِ لِأَنْ يَصِيرَ أَوَّلَ أَفْقِ الَّذِي بَعْدَهُ. وَاتَّسَعَ عَالَمُ الْحَيَوَانِ وَتَعَدَّدَتْ أَنْوَاعُهُ، وَانْتَهَى فِي تَدْرِجِ التَّكْوِينِ إِلَى الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالرُّوْيَةِ، تَرْتَفِعُ إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْقُدْرَةِ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ الْحِسُّ وَالْإِدْرَاكُ، وَلَمْ يَنْتَهَ إِلَى الرُّوْيَةِ وَالْفِكْرِ بِالْفِعْلِ؛ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَفْقِ مِنَ الْإِنْسَانِ بَعْدَهُ. وَهَذَا غَايَةُ شُهُودِنَا.

ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي الْعَوَالِمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا آثَارًا مُتَنَوِّعَةً: فَبِهَا عَالَمُ الْحِسِّ آثَارٌ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلَاكِ وَالْعَنَاصِرِ؛ وَفِي عَالَمِ التَّكْوِينِ آثَارٌ مِنْ حَرَكَةِ التَّمَوُّمِ وَالْإِدْرَاكِ، تَشْهَدُ كُلُّهَا بِأَنَّ لَهَا مُؤَثَّرًا مُبَاطِنًا لِلْأَجْسَامِ. فَهُوَ رُوحَانِيٌّ وَيَتَّصِلُ بِالْمَكُونَاتِ لِوُجُودِ اتِّصَالِ هَذَا الْعَالَمِ فِي وُجُودِهَا؛ وَذَلِكَ هُوَ النَّفْسُ الْمُدْرِكَةُ وَالْمَحْرُوكَةُ. وَلَا بُدَّ فَوْقَهَا مِنْ وُجُودِ آخَرَ يُعْطِيهَا قُوَى الْإِدْرَاكِ وَالْحَرَكَةِ، وَيَتَّصِلُ بِهَا أَيْضًا، وَيَكُونُ ذَاتُهُ إِدْرَاكًا صِرْفًا وَتَعَقُّلًا مَحْضًا، وَهُوَ عَالَمُ الْمَلَائِكَةِ. فَوَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ اسْتِعْدَادٌ لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ لِتَصِيرَ بِالْفِعْلِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَقَفَا مِنَ الْأَوْقَاتِ فِي لَمَحَةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ؛ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَكْمُلَ ذَاتُهَا الرُّوحَانِيَّةُ بِالْفِعْلِ كَمَا نَذَكُرُهُ بَعْدُ، وَيَكُونُ لَهَا اتِّصَالٌ بِالْأَفْقِ الَّذِي بَعْدَهَا، شَأْنُ الْمَوْجُودَاتِ الْمُرْتَبَةِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ. فَلَهَا فِي الْإِتِّصَالِ جِهَتَا الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ: فَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْبَدَنِ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهَا وَمُكْتَسِبَةٌ بِهَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ الَّتِي تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْحُصُولِ عَلَى التَّعَقُّلِ بِالْفِعْلِ؛ وَمُتَّصِلَةٌ مِنْ جِهَةِ الْأَعْلَى مِنْهَا بِأَفْقِ الْمَلَائِكَةِ وَمُكْتَسِبَةٌ بِهَ الْمَدَارِكِ^(١) الْعِلْمِيَّةِ وَالْفَيْيَّةِ، فَإِنَّ عَالَمَ الْحَوَادِثِ مَوْجُودٌ فِي تَعَقُّلَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زَمَانٍ. وَهَذَا مَا قَدْ مَنَاهُ مِنَ التَّرْتِيبِ الْمُحْكَمِ فِي الْوُجُودِ بِاتِّصَالِ دَوَاتِهِ وَقَوَاهُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

(١) المدارك : المعارف .

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ غَائِبَةً عَنِ الْعِيَانِ وَأَنَارُهَا ظَاهِرَةٌ فِي الْبَدَنِ؛ فَكَأَنَّهُ وَجَمِيعَ أَجْزَائِهِ مُجْتَمِعَةً وَمُفَرَّقَةً آلَاتٍ لِلنَّفْسِ وَلِقُوهَا، أَمَّا الْفَاعِلِيَّةُ فَالْبَطْشُ بِالْيَدِ وَالْمَشْيُ بِالرَّجْلِ وَالْكَلَامُ بِاللِّسَانِ وَالْحَرَكَةُ الْكُلِّيَّةُ بِالْبَدَنِ مُتَدَايِعًا. وَأَمَّا الْمُدْرِكَةُ وَإِنْ كَانَتْ قُوَى الْإِدْرَاكِ مُرْتَبَةً وَمُتَقَيِّمَةً إِلَى الْقُوَّةِ الْعُلْيَا مِنْهَا وَمِنَ الْمُفَكَّرَةِ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالنَّاطِقَةِ؛ فَقُوَى الْحِسِّ الظَّاهِرَةِ بِآلَاتِهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرِهَا يَزْتَقِي إِلَى الْبَاطِنِ، وَأَوَّلُهُ الْحِسُّ الْمُشْتَرَكُ؛ وَهُوَ قُوَّةٌ تُدْرِكُ الْمَحْسُوسَاتِ مُبَصَّرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَلْمُوسَةً وَغَيْرِهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَبِذَلِكَ فَارَقَتْ قُوَّةَ الْحِسِّ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ الْمَحْسُوسَاتِ لَا تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا فِي الْوَقْتِ الْوَاحِدِ. ثُمَّ يُؤَدِّيهِ الْحِسُّ الْمُشْتَرَكُ إِلَى الْخِيَالِ، وَهِيَ قُوَّةٌ تُثَمِّلُ الشَّيْءَ الْمَحْسُوسَ فِي النَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطُّ. وَاللَّهُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهِمَا الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّمَاغِ: مُقَدِّمَةٌ لِلأُولَى، وَمُؤَخَّرَةٌ لِلثَّانِيَةِ. ثُمَّ يَزْتَقِي الْخِيَالُ إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةِ. فَالْوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ كَعَادَاةٍ زَيْدٍ وَصَدَاقَةٍ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ الْأَبِ وَافْتِرَاسِ الذَّنْبِ. وَالْحَافِظَةُ لِإِبْدَاعِ الْمُدْرِكَاتِ كُلِّهَا مُتَخَيَّلَةً وَغَيْرَ مُتَخَيَّلَةٍ؛ وَهِيَ لَهَا كَالْخِزَانَةِ تَحْفَظُهَا لَوْقَتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا. وَاللَّهُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهِمَا الْبَطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدِّمَاغِ: أَوَّلُهُ لِلأُولَى، وَمُؤَخَّرُهُ لِلْأُخْرَى. ثُمَّ تَزْتَقِي جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ. وَاللَّهُ الْبَطْنُ الْأَوْسَطُ مِنَ الدِّمَاغِ؛ وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَقَعُ بِهَا حَرَكَةُ الرُّؤْيَا وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ التَّعَقُّلِ؛ فَتَحْرُكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا لِمَا رُكِبَ فِيهَا مِنَ التَّزْوِجِ لِلتَّخْلِصِ مِنْ دَرَكِ الْقُوَّةِ وَالِاسْتِعْدَادِ الَّذِي لِلْبَشَرِيَّةِ، وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ فِي تَعَقُّلِهَا مُشَبَّهَةً بِالْمَلَا الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ. وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ آلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ. فَبِهَا مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَدْ تَنَسَّلَحُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ احْتِسَابٍ، بَلْ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجِبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ الْأُولَى فِي ذَلِكَ.

أَصْنَافُ النَّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ :

وَالنَّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ :

١ - صِنْفٌ عَاجِزٌ بِالطَّبْعِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْإِدْرَاكِ الرُّوحَانِيِّ، فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ الشُّفْلَى نَحْوَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ، وَتَرْكِيْبِ الْمَعَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ عَلَى قَوَانِينِ مَحْصُورَةٍ، وَتَرْتِيبِ خَاصٍّ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصْدِيقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ؛ وَكُلُّهَا خَيَالِيٌّ مُنْحَصِرٌ بِنَاطِقِهِ؛ إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةٍ مَبْدِئِيَّةٍ يَنْتَهِي إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا، وَإِنْ فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا. وَهَذَا هُوَ فِي الْأَغْلَبِ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ الْجِسْمَانِيِّ. وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي

مدارك العلماء وفيه ترشح أقدامهم.

٢ - وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يقتصر إلى الآلات البدئية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك؛ فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري، ويشرح في فضاء المشاهدات الباطنية، وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهائها. وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ.

٣ - وصنف مفلور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانياتها وروحانياتها إلى الملائكة من الأقي الأعلى، ليصير في لمحاة من اللمحات ملكا بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقيهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة.

الوحي :

وهؤلاء الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -؛ جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة، وهي حالة الوحي، فطرة فطرهم الله عليها وجيلة صورهم فيها، ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية، بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة، وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيع نحوها. فهم يتوجهون إلى ذلك الأقي بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة. فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم، وتلقوا في ذلك الملأ الأعلى ما يتلقونه، وعاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها لحكمة التبليغ للعباد. فتارة يسمع أحدهم دويًا كأنه زمزم من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه، فلا يتفصي الدوي إلا وقد وعاه وفهمه. وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي إليه رجلا فيكلمه ويعي ما يقوله. والتلقي من الملك، والرجوع إلى المدارك البشرية، وفهمه ما ألقى عليه كله كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر، لأنه ليس في زمان، بل كلها تقع جميعا فيظهر كأنها سريعة، ولذلك سميت وحيًا؛ لأن الوحي في اللغة الإشرع.

واعلم أن الأولى وهي حالة الدوي هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه؛ والثانية وهي حالة تمثيل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين؛ ولذلك كانت أكمل من الأولى. وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي ﷺ الوحي لما سأله الحارث بن هشام، وقال: وكيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي»

فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ؛ وَأَخْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»^(١). وَإِنَّمَا كَانَتْ الْأُولَى أَشَدَّ لَأَنَّهَا مَبْدَأُ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْاِتِّصَالِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ فَيَعْسُرُ بَعْضُ الْعُسْرِ وَلِذَلِكَ لَمَّا عَاجَ^(٢) فِيهَا عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ اخْتَصَّتْ بِالسَّمْعِ وَصَعُبَ مَا سِوَاهُ. وَعِنْدَمَا يَتَكَرَّرُ الْوَحْيُ وَيَكْثُرُ التَّلَقِّي يَسْهُلُ ذَلِكَ الْاِتِّصَالُ فَعِنْدَمَا يَفْرُجُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ، يَأْتِي عَلَى جَمِيعِهَا وَخُصُوصًا الْأَوْضَحَ مِنْهَا وَهُوَ إِدْرَاكُ الْبَصَرِ. وَفِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْوَحْيِ فِي الْأُولَى بِصِغَةِ الْمَاضِي وَفِي الثَّانِيَةِ بِصِغَةِ الْمُضَارِعِ لَطِيفَةٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ؛ وَهِيَ أَنَّ الْكَلَامَ جَاءَ مَجِيءَ التَّمَثِيلِ لِحَالَتِي الْوَحْيِ، فَمَثَلُ الْحَالَةِ الْأُولَى بِالذَّوِيِّ الَّذِي هُوَ فِي الْمُتَعَارِفِ غَيْرُ كَلَامٍ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْفَهْمَ وَالْوَحْيَ يَتَّبَعُهُ غَيْبُ انْقِضَائِهِ^(٣)، فَنَاسَبَ عِنْدَ تَصْوِيرِ انْقِضَائِهِ وَإِنْصَالِهِ الْعِبَارَةَ عَنِ الْوَحْيِ بِالْمَاضِي، الْمُنَاطِقِ لِلْانْقِضَاءِ وَالْاِنْقِطَاعِ وَمَثَلُ الْمَلِكِ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ بِرَجُلٍ يُخَاطَبُ وَيَتَكَلَّمُ، وَالْكَلَامُ يُسَاوِفُهُ الْوَحْيُ، فَنَاسَبَ الْعِبَارَةَ بِالْمُضَارِعِ الْمُقْتَضِي لِلتَّجَدُّدِ.

وَأَعْلَمَ أَنَّ فِي حَالَةِ الْوَحْيِ كُلِّهَا صُعُوبَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ، وَشِدَّةٌ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الزمل: ٥] وَقَالَتْ عَائِشَةُ: «كَانَ مِمَّا يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةٌ»^(٤)؛ وَقَالَتْ: «كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينَهُ لَيَنْفَضُّ عَرَقًا»^(٥). وَلِذَلِكَ كَانَ يَحْدُثُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنَ الْعَبَثِ وَالْعَطِيطِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَّرْنَاهُ مُفَارَقَةُ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَكِيَّةِ وَتَلَقِّي كَلَامِ النَّفْسِ، فَيَحْدُثُ عَنْهُ شِدَّةٌ مِنْ مُفَارَقَةِ الذَّاتِ ذَاتَهَا وَأَنْسِلَاحِهَا عَنْهَا مِنْ أَفْقِهَا إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ الْآخَرِ. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعَطِّ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ فِي مَبْدَأِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ: «فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ»، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ! فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً» كَمَا فِي الْحَدِيثِ. وَقَدْ يُفْضَى الْاِعْتِيَادُ بِالتَّدرِجِ فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى بَعْضِ السَّهُولَةِ بِالْقِيَّاسِ إِلَى مَا قَبْلَهُ. وَلِذَلِكَ كَانَ تُنَزَّلُ نُجُومُ الْقُرْآنِ وَسُورِهِ وَأَيُّهُ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ. وَانْظُرْ إِلَى مَا نُقِلَ فِي نُزُولِ سُورَةِ بَرَاءةٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَنَّهَا نُزِّلَتْ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَ بِمَكَّةَ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمُفْصَلِ فِي وَقْتٍ، وَيُنَزَّلُ الْبَاقِي فِي حِينٍ آخَرَ. وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ مَا نُزِّلَ بِالْمَدِينَةِ آيَةُ الدِّينِ وَهِيَ مَا هِيَ فِي الطَّوْلِ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الْآيَةُ تُنَزَّلُ بِمَكَّةَ مِثْلُ آيَاتِ الرَّحْمَنِ وَالذَّارِيَّاتِ وَالْمُدَّثِّرِ وَالضُّحَى وَالْفَلَقِ وَأَمْثَالِهَا.

(٢) عَاجَ : مَالٌ .

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ .

(٤) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ .

(٣) غَيْبُ انْقِضَائِهِ : حَالُ انْقِضَائِهِ .

(٥) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ .

وَأَعْتَبِرْ مِنْ ذَلِكَ عَلَامَةً تُمَيِّزُ بِهَا بَيْنَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ مِنَ الشُّورِ وَالْآيَاتِ. وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ. هَذَا مُحْصَلُ أَمْرِ التَّبَوُّةِ.

الكهانة :

وَأَمَّا الْكِهَانَةُ فَهِيَ أَيْضًا مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَادًا لِلْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا، وَأَنَّهُ يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ لَمَحَّةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ التَّصَوُّرَاتِ، وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ كَلَامًا أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ، إِنَّمَا هُوَ انْسِلَاخٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ الْاسْتِعْدَادُ مُوجُودًا فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، فَيُعْطَى التَّقْسِيمُ الْعَقْلِيُّ، وَإِنَّ هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِضًا عَنْ رُتْبَةِ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ تُقْضَى الضَّدَّةُ عَنْ ضِدِّهِ الْكَامِلِ لِأَنَّ عَدَمَ الْاسْتِعَانَةِ فِي ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ ضِدُّ الْاسْتِعَانَةِ فِيهِ، وَشَتَانٌ^(١) مَا بَيْنَهُمَا. فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمُ الْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ مَفْطُورًا عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ الْعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا الْفِكْرِيَّةَ بِالْإِرَادَةِ عِنْدَمَا يَتَعَثَّرُ التَّزَوُّعُ لِذَلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِالْجِبِلَّةِ، فَيَكُونُ لَهَا بِالْجِبِلَّةِ عِنْدَمَا يُعَوِّقُهَا الْعَجْزُ عَنْ ذَلِكَ تَشَبُّهُ بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ أَوْ مُتَحَيِّلَةٍ، كَالْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ وَعِظَامِ الْحَيَوَانَاتِ وَسَجْعِ الْكَلَامِ وَمَا سَنَعَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ، فَيَسْتَدِيمُ ذَلِكَ الْإِحْسَاسُ أَوْ التَّحَيُّلُ مُسْتَعِينًا بِهِ فِي ذَلِكَ الْإِنْسِلَاخِ الَّذِي يَقْضِيهِ وَيَكُونُ كَالْمُشْبِعِ لَهُ. وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأٌ لِذَلِكَ الْإِدْرَاكِ هِيَ الْكِهَانَةُ. وَلَكُونِ هَذِهِ النَّفُوسِ مَفْطُورَةٌ عَلَى التَّقْصِ وَالْقُصُورِ عَنِ الْكَمَالِ كَانَ إِدْرَاكُهَا فِي الْجُزْئِيَّاتِ أَكْثَرَ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ. وَلِذَلِكَ تَكُونُ الْمُخَيَّلَةُ فِيهِمْ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ لِأَنَّهَا أَلَّةُ الْجُزْئِيَّاتِ، فَتَنْقُذُ فِيهَا نَفْسًا تَامًا فِي نَوْمٍ أَوْ يَقْظَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا حَاضِرَةٌ عَتِيدَةً تُحْضِرُهَا الْمُخَيَّلَةُ وَتَكُونُ لَهَا كَالْمِرَاةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا. وَلَا يَقْوَى الْكَاهِنُ عَلَى الْكَمَالِ فِي إِدْرَاكِ الْمَعْقُولَاتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ. وَأَرْفَعُ أَحْوَالِ هَذَا الصَّنْفِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْكَلامِ الَّذِي فِيهِ السَّجْعُ وَالْمُوازَنَةُ لِيَسْتَغْلَلَ بِهِ عَنِ الْخَوَاصِّ وَيَقْوَى بَعْضُ الشَّيْءِ عَلَى ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ النَّاقِصِ، فَيَهْجُسُ^(٢) فِي قَلْبِهِ عَنْ تِلْكَ الْحَرَكَةِ، وَالَّذِي يُسَيِّعُهَا مِنْ ذَلِكَ الْأَجْنَبِيِّ، مَا

(١) شتان : اسم فعل ماض بمعنى بُغِذَ . (٢) يهجس : يخطر بباله ، أو يحدث نفسه في صدره مثل الوسواس .

يَقْدُهُ عَلَى لِسَانِهِ؛ فَوَيْلٌ لِمَنْ صَدَقَ وَوَافَقَ الْحَقَّ، وَرُبَّمَا كَذَبَ؛ لِأَنَّهُ يُتَمَّمُ نَفْسُهُ بِأَمْرِ أَجَنَّبِيٍّ عَنْ ذَاتِهِ الْمُدْرِكَةِ وَمُبَايِنٍ لَهَا غَيْرِ مُلَائِمٍ، فَيَعْرِضُ لَهُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا يَكُونُ مُؤْتَوِّقًا بِهِ. وَرُبَّمَا يَفْزَعُ إِلَى الظُّنُونِ وَالتَّخْمِينَاتِ حِرْصًا عَلَى الظَّفَرِ بِالْإِدْرَاكِ بِزَعْمِهِ، وَتَمْوِيهَا عَلَى السَّائِلِينَ. وَأَصْحَابُ هَذَا السَّجْعِ هُمُ الْمُخَصَّصُونَ بِاسْمِ الْكُهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ. وَقَدْ قَالَ ﷺ فِي مِثْلِهِ: «هَذَا مِنْ سَجْعِ الْكُهَّانِ». فَجَعَلَ السَّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى الْإِضَافَةِ. وَقَدْ قَالَ لَابْنُ صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ بِالْأَخْبَارِ: كَيْفَ يَأْتِيكَ هَذَا الْأَمْرُ؟ قَالَ: يَأْتِينِي صَادِقًا وَكَاذِبًا! فَقَالَ: تُحِلِّطُ عَلَيْكَ الْأُمُورُ! يَعْنِي أَنَّ الثُّبُوتَ خَاصَّتُهَا الصِّدْقُ فَلَا يَغْتَرِبُهَا الْكَذِبُ بِحَالٍ لِأَنَّهَا اتَّصَالٌ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ مُشْتَبَعٍ وَلَا اسْتِيعَانَةٍ بِأَجَنَّبِيٍّ. وَالْكِهَانَةُ لَمَّا اخْتِاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى الْاسْتِيعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجَنَّبِيَّةِ كَانَتْ دَاخِلَةً فِي إِدْرَاكِهِ، وَالتَّبَسُّتُ بِالْإِدْرَاكِ الَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ، فَصَارَ مُخْتَطِطًا بِهَا، وَطَرَفَهُ الْكَذِبُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، فَاِمْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ ثُبُوتًا. وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعَ مَرَاتِبِ الْكِهَانَةِ حَالَةُ السَّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى السَّجْعِ أَخْفَ مِنْ سَائِرِ الْمُغَيَّبَاتِ مِنَ الْمَرْتَبَاتِ وَالْمَسْمُوعَاتِ. وَتَدُلُّ خِفَةُ الْمَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ وَالْإِدْرَاكِ، وَالتَّبَعِدِ فِيهِ عَنِ الْعَجْزِ بَعْضُ الشَّيْءِ.

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الْكِهَانَةَ قَدْ انْقَطَعَتْ مُنْذُ زَمَنِ الثُّبُوتِ بِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ رَجَمِ الشَّيَاطِينِ بِالشُّهْبِ بَيْنَ يَدَيِ الْبَغْتَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِيَمْنَعَهُمْ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ؛ وَالْكُهَّانُ إِنَّمَا يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ؛ فَطَلَبَتِ الْكِهَانَةُ مِنْ يَوْمَئِذٍ. وَلَا يَقُومُ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ؛ لِأَنَّ غُلُومَ الْكُهَّانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ تَكُونُ مِنْ نَفْسِهِمْ أَيْضًا كَمَا قَرَّرْنَاهُ. وَأَيْضًا فَلَا لَاحِظَ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنَعِ الشَّيَاطِينِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ الْبَغْتَةِ، وَلَمْ يُمْنَعُوا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ. وَأَيْضًا فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِنْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيِ الثُّبُوتِ فَقَطْ، وَلَعَلَّهَا عَادَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكَ كُلُّهَا تَحْمَدُ فِي زَمَنِ الثُّبُوتِ، كَمَا تَحْمَدُ الْكَوَاكِبُ وَالشُّرُجُ عِنْدَ وُجُودِ الشَّمْسِ؛ لِأَنَّ الثُّبُوتَ هِيَ التَّوَرُّ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفِي مَعَهُ كُلُّ نَوْرٍ وَيَذْهَبُ.

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا إِنَّمَا تَوْجَدُ بَيْنَ يَدَيِ الثُّبُوتِ، ثُمَّ تَنْقَطِعُ؛ وَهَكَذَا مَعَ كُلِّ ثُبُوتٍ وَقَعَتْ، لِأَنَّ وُجُودَ الثُّبُوتِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَضْعٍ فَلِكَيْ يَقْتَضِيَهُ، وَفِي تَمَامِ ذَلِكَ الْوَضْعِ تَمَامُ تِلْكَ الثُّبُوتِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا، وَنَقْضُ ذَلِكَ الْوَضْعِ عَنِ التَّمَامِ يَقْتَضِي وَجُودَ طَبِيعَةٍ - مِنْ ذَلِكَ النَّوعِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ - نَاقِضَةٍ، وَهُوَ مَعْنَى الْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ. فَقَبِلَ أَنْ يَسَمَّ ذَلِكَ الْوَضْعَ الْكَامِلَ

يقع الوضع ناقص، ويقتضي وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً. فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكامله، وانقصت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة، فلا يوجد منها شيء بعد. وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره؛ وهو غير مسلم. فلعل الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بهيئته الخاصة، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقضي شيئاً، لا أنه يقتضي ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه.

ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصديق النبي ودلالة معجزته، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم. ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم. ولا يصدّهم عن ذلك ويوقعهم في التّكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبوة لهم، فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت فإنه كان يطمع أن يتنبأ، وكذا وقع لابن صياد ولمسيلم^(١) وغيرهم. فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان؛ كما وقع لطلحة الأسدي وسواد بن قارب؛ وكان لهما في الفتوح الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان.

الرويا :

وأما الرويا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقع. فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقع فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الدواب الروحانية كلها. وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدئية. وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم كما نذكر، فتفتبس بها علم ما تشوف^(٢) إليه من الأمور المستقبلية وتعود به إلى مداركها. فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التغيير وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج إلى تغيير لخلوصه من المثال والخيال. والسبب في وقوع هذه اللوحة للنفس أنها ذات روحانية بالقوة، مستكملة بالبدن ومداركه؛ حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ويكمل وجودها بالفعل؛ فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مذكّرة بغير شيء من الآلات البدئية. إلا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى الذين لم

(١) هو مسيلم بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي. تلفب في الجاهلية بالرحمن، وبعد أن فتح النبي مكة جاءه وفد من بني حنيفة، فأسلم الوفد ولم يسلم مسيلم وقال: ليس بشرع. وبعد وفاة النبي ادعى مسيلم النبوة في اليمامة فدعى أبو بكر خالد بن الوليد فقتل عليه وعلى دعوته.

(٢) تشوف إليه : تحب الاطلاع عليه.

يَسْتَكْمِلُوا ذَوَاتِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ مَدَارِكِ الْبَدَنِ وَلَا غَيْرِهِ. فَهَذَا الْاسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ: وَمِنْهُ خَاصٌّ لِلْأُولِيَاءِ؛ وَمِنْهُ عَامٌّ لِلْبَشَرِ عَلَى الْعُمومِ؛ وَهُوَ أَمْرُ الرُّؤْيَا.

وَأَمَّا الَّذِي لِلْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ اسْتِعْدَادٌ بِالْإِسْلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ الْمُخَصَّصَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الرُّوحَانِيَّاتِ. وَيَخْرُجُ هَذَا الْاسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّرًا فِي حَالَاتِ الْوَحْيِ؛ وَهُوَ عِنْدَمَا يُعْرَجُ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنَ الْإِدْرَاكِ يَكُونُ شَبِيهَا بِحَالِ النَّوْمِ شَبِيهَا بَيِّنًا، وَإِنْ كَانَ حَالُ النَّوْمِ أَذْوَنَ ^(١) مِنْهُ يَكْثِيرُ. فَلَأَجْلِ هَذَا الشَّبَهِ عَبَّرَ الشَّارِعُ عَنِ الرُّؤْيَا بِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ سِنَةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ الثُّبُوتِ، وَفِي رِوَايَةٍ ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ، وَفِي رِوَايَةٍ سَبْعِينَ. وَلَيْسَ الْعَدَدُ فِي جَمِيعِهَا مَقْصُودًا بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَثْرَةُ فِي تَفَاوُتِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ؛ بِدَلِيلِ ذِكْرِ السَّبْعِينَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ وَهُوَ لِلتَّكْثِيرِ عِنْدَ الْعَرَبِ. وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فِي رِوَايَةِ سِنَةٍ وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ فِي مُبْتَدِئِهِ بِالرُّؤْيَا سِنَةً أَشْهُرُ وَهِيَ نِصْفُ سِنَةٍ، وَمُدَّةُ الثُّبُوتِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سِنَةً، فَيُصَفُّ السَّنَةُ مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِنَةٍ وَأَرْبَعِينَ، فَكَلَامٌ بَعِيدٌ مِنَ التَّحْقِيقِ. لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَمَنْ أَتَيْنَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؟ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُعْطَى نِسْبَةً زَمَنِ الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ الثُّبُوتِ، وَلَا يُعْطَى نِسْبَةً حَقِيقَتِهَا مِنْ حَقِيقَةِ الثُّبُوتِ. وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ هَذَا مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْاسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ الشَّامِلِ لِلْبَشَرِ إِلَى الْاسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِصِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ الْفِطْرِيِّ لَهُمْ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -؛ إِذْ هُوَ الْاسْتِعْدَادُ الْبَعِيدُ وَإِنْ كَانَ عَامًّا فِي الْبَشَرِ وَمَعَهُ عَوَائِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ حُصُولِهِ بِالْفِعْلِ. وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ. فَفَطَرَ اللَّهُ الْبَشَرَ عَلَى اِرْتِفَاعِ حِجَابِ الْحَوَاسِّ بِالنَّوْمِ الَّذِي هُوَ جِبِلِّيٌّ لَهُمْ، فَتَتَعَرَّضُ النَّفْسُ عِنْدَ اِرْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ الْحَقِّ، فَتَذُرُكَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْهُ لَمَحَّةٌ يَكُونُ فِيهَا الظُّفْرُ بِالْمَطْلُوبِ. وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا الشَّارِعُ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ، فَقَالَ: «لَمْ يَتَقَنَّ مِنَ الثُّبُوتِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ؛ قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ» ^(٢).

وَأَمَّا سَبَبُ اِرْتِفَاعِ حِجَابِ الْحَوَاسِّ بِالنَّوْمِ فَعَلَى مَا أَصِفُهُ لَكَ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ التَّاطِقَةَ إِنَّمَا إِدْرَاكُهَا وَأَفْعَالُهَا بِالرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ الْجِسْمَانِيِّ، وَهُوَ بُخَارٌ لَطِيفٌ مَرْكَزُهُ بِالتَّجْوِيفِ الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى مَا فِي كُتُبِ التَّشْرِيحِ لِجَالِينُوسَ وَغَيْرِهِ. وَيَنْبَغُ مَعَ الدَّمِ فِي الشَّرْيَانَاتِ وَالْعُرُوقِ فَيُعْطَى الْجِسْمَ وَالْحَرَكَةَ وَسَائِرَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ. وَيُوتَفَعُّ لَطِيفُهُ إِلَى الدَّمَاعِ فَيَعْدُلُ مِنْ بَرْدِهِ، وَتَتِمُّ

(١) أَدْوَنُ مِنْهُ: أَقْلُ مِنْهُ.

(٢) الْمَوْطَأُ فِي الرُّؤْيَا (٢/٩٥٧).

أفعال القوى التي في بطونه. فالنفس الناطقة إنما تُدرك وتَعْقِل بهذا الروح البخاري، وهي مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِمَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ التَّكْوِينِ فِي أَنَّ اللَّطِيفَ لَا يُؤْثِرُ فِي الْكَثِيفِ؛ وَلِذَا لَطَفَ هَذَا الرُّوحَ الْحَيَوَانِيَّ مِنْ بَيْنِ الْمَوَادِّ الْبَدَنِيَّةِ، صَارَ مَحَلًّا لِأَثَارِ الذَّاتِ الْمَبَايِنَةِ لَهُ فِي جِسْمَانِيَّتِهِ وَهِيَ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ، وَصَارَتْ أَثَارُهَا حَاصِلَةً فِي الْبَدَنِ بِوَاسِطَتِهِ. وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ إِدْرَاكَهَا عَلَى نَوْعَيْنِ: إِدْرَاكِ بِالظَّاهِرِ وَهُوَ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ، وَإِدْرَاكِ بِالْبَاطِنِ بِالْقُوَى الدَّمَاغِيَّةِ. وَأَنَّ هَذَا الْإِدْرَاكَ كُلَّهُ صَارَفَ لَهَا عَنْ إِدْرَاكِهَا مَا فَوْقَهَا مِنْ ذَوَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْفِطْرَةِ. وَلَمَّا كَانَتْ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ جِسْمَانِيَّةً، كَانَتْ مُعَرَّضَةً لِلْوَسَنِ^(١) وَالْفَسْلِ بِمَا يُدْرِكُهَا مِنَ التَّعَبِ وَالْكَلالِ، وَتَغْشَى الرُّوحَ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ. فَخَلَقَ اللَّهُ لَهَا طَلَبَ الْاسْتِجْمَامِ لِتَجَرُّدِ الْإِدْرَاكِ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِانْخِنَاسِ^(٢) الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ مِنَ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا، وَرَجُوعِهِ إِلَى الْجِسِّ الْبَاطِنِ. وَيَعِينُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَغْشَى الْبَدَنَ مِنَ الْبَرْدِ بِاللَّيْلِ، فَتَطْلُبُ الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ أَعْمَاقَ الْبَدَنِ، وَتَذْهَبُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَى بَاطِنِهِ، فَتَكُونُ مُشِيعَةً مُرَكَّبَةً، وَهُوَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ إِلَى الْبَاطِنِ. وَلِذَلِكَ كَانَ النَّوْمُ لِلْبَشَرِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ. فَإِذَا انْخَسَرَ الرُّوحُ عَنِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ وَرَجَعَ إِلَى الْقُوَى الْبَاطِنَةِ، وَخَفَّتْ عَنِ النَّفْسِ شَوَاغِلُ الْجِسِّ وَمَوَانِعُهُ وَرَجَعَتْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ، تَمَثَّلَ مِنْهَا بِالتَّرْكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ صُورٌ خَيَالِيَّةٌ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ مَعْتَادَةً، لِأَنَّهَا مُنْتَزَعَةٌ مِنَ الْمُدْرَكَاتِ الْمُتَعَاهَدَةِ قَرِيبًا. ثُمَّ يُثْرِلُهَا الْجِسُّ الْمَشْتَرِكُ الَّذِي هُوَ جَامِعُ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ؛ فَيَدْرِكُهَا عَلَى أَنْحَاءِ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ. وَزُبْنًا التَّفَقَّتِ النَّفْسُ لَفْتَةً إِلَى ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ مَعَ مُنَازَعَتِهَا الْقُوَى الْبَاطِنِيَّةِ، فَتُدْرِكُ بِإِدْرَاكِهَا الرُّوحَانِيَّ لِأَنَّهَا مَفْطُورَةٌ عَلَيْهِ، وَتَقْتَبِسُ مِنْ صُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي صَارَتْ مُتَعَلِّقَةً فِي ذَاتِهَا حِينَئِذٍ. ثُمَّ يَأْخُذُ الْخَيَالُ تِلْكَ الصُّورَ الْمُدْرَكَةَ فَيَمَثِّلُهَا بِالْحَقِيقَةِ أَوْ الْمُحَاكَاةِ فِي الْقَوَالِبِ الْمَعْهُودَةِ. وَالْمُحَاكَاةُ مِنْ هَذِهِ هِيَ الْمُحْتَاجَةُ لِلتَّعْبِيرِ، وَتَصَرُّفُهَا بِالتَّرْكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ فِي صُورِ الْحَافِظَةِ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَ مِنْ تِلْكَ اللَّمَحَةِ مَا تُدْرِكُهُ هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: رُؤْيَا مِنَ اللَّهِ؛ وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلِكِ؛ وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ»^(٣). وَهَذَا التَّفْصِيلُ مُطَابِقٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ: فَالْجَلِيُّ مِنَ اللَّهِ؛ وَالْمُحَاكَاةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى التَّعْبِيرِ مِنَ الْمَلِكِ؛ وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهَا كُلُّهَا بَاطِلٌ وَالشَّيْطَانُ يَنْبُوعُ الْبَاطِلِ. هَذِهِ حَقِيقَةُ الرُّؤْيَا وَمَا يُسَبِّحُهَا وَيُشَيِّعُهَا مِنَ النَّوْمِ وَهِيَ خَوَاصُّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَوْجُودَةٌ فِي الْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ لَا يَخْلُو عَنْهَا

(١) الوسن: الثعاس. (٢) انخناس: تأخر وانقباض وتخلف.

(٣) مسلم في الرؤيا رقم (٢٢٦٣).

أَحَدٌ مِنْهُمْ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِنْسَانِيِّ رَأَى فِي نَوْمِهِ مَا صَدَرَ لَهُ فِي يَقْظَتِهِ مِرَارًا غَيْرَ وَاحِدَةٍ، وَحَصَلَ لَهُ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّ النَّفْسَ مُدْرِكَةٌ لِلْغَيْبِ فِي النَّوْمِ، وَلَا بَدَأَ. وَإِذَا جازَ ذَلِكَ فِي عَالَمِ النَّوْمِ فَلَا يَمْتَنِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ لِأَنَّ الذَّاتَ الْمُدْرِكَةَ وَاحِدَةً، وَخَوَاصَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ حَالٍ. وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

الإخبار بالمغيبات :

وَوُقُوعُ مَا يَقَعُ لِلْبَشَرِ مِنْ ذَلِكَ غَالِبًا إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَضْدٍ وَلَا قُدْرَةٍ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّمَا تَكُونُ النَّفْسُ مُتَشَوِّقَةً لِدَلَالَةِ الشَّيْءِ فَيَقَعُ لَهَا بِتِلْكَ اللَّحْمَةِ فِي النَّوْمِ، لَا أَنَّهَا تَقْصِدُ إِلَى ذَلِكَ فَتَرَاهُ. وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ «الغاية» وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ ذِكْرُ أَسمَاءِ تُذَكِّرُ عِنْدَ النَّوْمِ فَتَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا فِيمَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ، وَيُسْمَعُونَهَا الْحَالُومِيَّةَ. وَذَكَرَ مِنْهَا مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ «الغاية» حَالُومَةً سَمَّاها «حَالُومَةُ الطَّبَّاعِ النَّامِ»، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ النَّوْمِ بَعْدَ فَرَاغِ السَّرِّ وَصِحِّهِ التَّوَجُّهُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْأَعْجَمِيَّةُ وَهِيَ، «تماغس بعد أن يسود وغداس نوننا غادس»^(١) ويزكر حاجته، فَإِنَّهُ يَرَى الْكُشْفَ عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ فِي النَّوْمِ.

وَحِكْمِي أَنْ رَجُلًا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةٍ لِيَالٍ فِي مَأْكَلِهِ وَذَكَرَهُ، فَتَمَثَّلَ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طَبَّاعُكَ النَّامِ، فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ. وَقَدْ وَقَعَ لِي أَنَا بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ مَرَّاءَ عَجَبِيَّةٍ وَأَطْلَعْتُ بِهَا عَلَى أُمُورٍ كُنْتُ أَتَشَوَّفُ إِلَيْهَا مِنْ أَحْوَالِي. وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْقَضْدَ لِلرُّؤْيَا يُحْدِثُهَا؛ وَإِنَّمَا هَذِهِ الْحَالُومَاتُ تُحْدِثُ اسْتِغْدَادًا فِي النَّفْسِ لَوُقُوعِ الرُّؤْيَا؛ فَإِذَا قَوِيَ الْاسْتِغْدَادُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى حُصُولِ مَا يُسْتَعَدُّ لَهُ وَلِلشَّخْصِ أَنْ يَفْعَلَ مِنَ الْاسْتِغْدَادِ مَا أَحَبَّ وَلَا يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى إِيقَاعِ الْمُسْتَعَدِّ لَهُ. فَالْقُدْرَةُ عَلَى الْاسْتِغْدَادِ غَيْرُ الْقُدْرَةِ عَلَى الشَّيْءِ؛ فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَتَذَكَّرْهُ فِيمَا تَجِدُ مِنْ أَمْثَالِهِ. وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

فصل

ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ أَشْخَاصًا يُخْبِرُونَ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ وَقُوعِهَا، بِطَبِيعَةٍ فِيهِمْ يَتَمَيَّزُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ، وَلَا يَرْجِعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى صِنَاعَةٍ، وَلَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَثَرٍ مِنَ الثُّجُومِ وَلَا غَيْرِهَا؛ إِنَّمَا نَجِدُ مَدَارِكَهُمْ فِي ذَلِكَ بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا؛ وَذَلِكَ

(١) ليس لهذه الكلمات أي معنى ولعلها أسماء لبعض الجن .

مِثْلُ الْعَرَافِينَ وَالنَّاطِرِينَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَالْمَرَايا وَطَسَاسِ الْمَاءِ، وَالنَّاطِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الرَّجْرِ فِي الطَّيْرِ وَالسَّبَاعِ، وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالْحَبُوبِ مِنَ الْجِنِّطَةِ وَالتَّوَى، وَهَذِهِ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ لَا يَسْمَعُ أَحَدًا جَعَلَهَا وَلَا إِنكَارَهَا. وَكَذَلِكَ الْمَجَانِينُ يُلْقَى عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كَلِمَاتٌ مِنَ الْغَيْبِ فَيُخْبِرُونَ بِهَا. وَكَذَلِكَ النَّائِمُ وَالْمَيِّتُ لِأَوَّلِ مَوْتِهِ أَوْ نَوْمِهِ يَتَكَلَّمُ بِالْغَيْبِ. وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيَاضَاتِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ مَدَارِكُ فِي الْغَيْبِ عَلَى سَبِيلِ الْكِرَامَةِ مَعْرُوفَةٌ.

وَنَحْنُ الْآنَ نَتَكَلَّمُ عَلَى هَذِهِ الْإِدْرَاكَاتِ كُلِّهَا، وَنَبْدِئُ مِنْهَا بِالْكِهَانَةِ، ثُمَّ نَأْتِي عَلَيْهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً إِلَى آخِرِهَا. وَنُقَدِّمُ عَلَى ذَلِكَ مُقَدِّمَةً فِي أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ كَيْفَ تَسْتَعِدُّ لِإِدْرَاكِ الْغَيْبِ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا. وَذَلِكَ أَنَّهَا ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ مَوْجُودَةٍ بِالْقُوَّةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الرُّوحَانِيَّاتِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلَ؛ وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ بِالْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ. وَهَذَا أَمْرٌ مُذَرَكٌ لِكُلِّ أَحَدٍ. وَكُلُّ مَا بِالْقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ. وَصُورَةُ هَذِهِ النَّفْسِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ وُجُودُهَا هُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ وَالتَّعَقُّلِ. فَهِيَ تَوْجِدُ أَوَّلًا بِالْقُوَّةِ مُسْتَعِدَّةً لِإِدْرَاكِ وَقَبُولِ الصُّورِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ. ثُمَّ يَتِمُّ نَشْؤُهَا وَوُجُودُهَا بِالْفِعْلِ بِمَصَاحِبَةِ الْبَدَنِ وَمَا يُعَوِّدُهَا بِوُرُودِ مُذَرَكَاتِهَا الْمَحْسُوسَةِ عَلَيْهَا، وَمَا تَنْتَزِعُ مِنْ تِلْكَ الْإِدْرَاكَاتِ مِنَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ بِتَعَقُّلِ الصُّورِ، مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، حَتَّى يَحْصُلَ لَهَا الْإِدْرَاكُ وَالتَّعَقُّلُ بِالْفِعْلِ، فَتَيَمُّ ذَاتُهَا، وَتَبْقَى النَّفْسُ كَالْهَيُولَى^(١)، وَالصُّورُ مُتَعَاقِبَةٌ عَلَيْهَا بِالْإِدْرَاكِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ. وَلِذَلِكَ نَجِدُ الصَّبِيَّ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِدْرَاكِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا لَا بِنَوْمٍ وَلَا بِكَشْفٍ وَلَا بِغَيْرِهِمَا. وَذَلِكَ لِأَنَّ صُورَتَهَا الَّتِي هِيَ عَيْنُ ذَاتِهَا وَهُوَ الْإِدْرَاكُ وَالتَّعَقُّلُ لَمْ يَتِمَّ بَعْدُ، بَلْ لَمْ يَتِمَّ لَهَا انْتِزَاعُ الْكُلِّيَّاتِ. ثُمَّ إِذَا تَمَّتْ ذَاتُهَا بِالْفِعْلِ حَصَلَ لَهَا مَا دَامَتْ مَعَ الْبَدَنِ نَوْعَانِ مِنَ الْإِدْرَاكِ: إِدْرَاكٌ بِأَلَاتِ الْجِسْمِ تُؤَدِّيهِ إِلَيْهَا الْمَدَارِكُ الْبَدَنِيَّةُ، وَإِدْرَاكٌ بِذَاتِهَا مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهِيَ مَخْجُوءَةٌ عَنْهُ بِالْانْعِمَاسِ^(٢) فِي الْبَدَنِ وَالْحَوَاسِّ وَبَشَوَاعِلِهَا، لِأَنَّ الْحَوَاسَّ أَبَدًا جَاذِبَةٌ لَهَا إِلَى الظَّاهِرِ بِمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ أَوَّلًا مِنَ الْإِدْرَاكِ الْجِسْمَانِيِّ. وَرُبَّمَا تَنْعَمِسُ مِنَ الظَّاهِرِ إِلَى الْبَاطِنِ، فَيَرْتَفِعُ حِجَابُ الْبَدَنِ لَحْظَةً: إِمَّا بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِلْإِنْسَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِثْلُ النَّوْمِ، أَوْ بِالْخَاصِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ لِيَتَغَضَّ الْبَشَرِ مِثْلُ الْكِهَانَةِ وَالطَّرِيقِ، أَوْ بِالرِّيَاضَةِ مِثْلِ أَهْلِ الْكَشْفِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ. فَتَلْتَفِتُ حِينَئِذٍ إِلَى الذَّوَاتِ الَّتِي فَوْقَهَا مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى لِمَا بَيْنَ أَفْقِهَا وَأَفْقِهِمْ مِنَ الْإِتِّصَالِ فِي الْوُجُودِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ قَبْلَ. وَتِلْكَ الذَّوَاتُ

(١) تعبير فلسفي، وشبه الأقدمون طينة العالم به. (٢) الانغماس: الاستغراق.

روحانيّة وهي إدراك مَحْضٌ وعقولٌ بالفعل، وفيها صُورُ الموجوداتِ وحَقَائِقُهَا كما مرَّ. فَيَجَلِي فِيهَا شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الصُّورِ وَتَقْتَبِسُ مِنْهَا غُلُومًا. وَرُبَّمَا دُفِعَتْ تِلْكَ الصُّورُ الْمُدْرَكَةُ إِلَى الْخِيَالِ فَيَصْرِفُهَا فِي الْقَوَالِبِ الْمُعْتَادَةِ، ثُمَّ يَرَاغِعُ الْحِسَّ بِمَا أَدْرَكَتْ إِمَّا مُجَرَّدًا أَوْ فِي قَوَالِبِهِ فَتُخْبِرُ بِهِ. هَذَا هُوَ شَرْحُ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ لِهَذَا الْإِدْرَاكِ الْغَيْبِيِّ. وَلَنَرْجِعَ إِلَى مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيَانِ أَصْنَافِهِ :

فَأَمَّا التَّائِظِرُونَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ مِنَ الْمَرَايَا وَطَسَاسِ الْمِيَاهِ وَقُلُوبِ الْحَيَوَانِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا، وَأَهْلُ الطُّرُقِ بِالْحَصَى وَالنُّوَى، فَكُلُّهُمْ مِنْ قَبِيلِ الْكُهَّانِ، إِلَّا أَنَّهُمْ أَضْعَفُ رُتْبَةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ، لِأَنَّ الْكَاهِنَ لَا يَخْتَانُ فِي رَفْعِ حِجَابِ الْحِسِّ إِلَى كَثِيرٍ مُعَانَاةٍ؛ وَهَؤُلَاءِ يُعَانُونَهُ بِانْحِصَارِ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ كُلِّهَا فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا، وَأَشْرَفُهَا الْبَصَرُ، فَيَعْكِفُ عَلَى الْمَرْئِيِّ الْبَسِيطِ حَتَّى يَدْرَكَ لَهُ مُدْرَكُهُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ. وَرُبَّمَا يُظُنُّ أَنَّ مُشَاهَدَةَ هَؤُلَاءِ لِمَا يَرُونَهُ هُوَ فِي سَطْحِ الْمِرْآةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ. بَلْ لَا يَرَالُونَ يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ الْمِرْآةِ إِلَى أَنَّ يَغِيبَ عَنِ الْبَصَرِ، وَيَبْدُو فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَطْحِ الْمِرْآةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَمَامٌ يَتِمَثَّلُ فِيهِ صُورُ هِيَ مَدَارِكُهُمْ، فَيُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَقْصُودِ لِمَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ، فَيُخْبِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أَدْرَكُوهُ. وَأَمَّا الْمِرْآةُ وَمَا يُدْرِكُ فِيهَا مِنَ الصُّورِ فَلَا يُدْرِكُ كَوْنَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ؛ وَإِنَّمَا يَنْشَأُ لَهُمْ بِهَا هَذَا النَّوْعُ الْآخَرُ مِنَ الْإِدْرَاكِ، وَهُوَ نَفْسَانِيٌّ لَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ، بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمُدْرَكُ النَّفْسَانِيُّ لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ. وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا يَغْرِضُ لِلنَّائِظِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانِ وَأَكْبَادِهَا، وَلِلنَّائِظِينَ فِي الْمَاءِ وَالطُّسَاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَشْغَلُ الْحِسَّ بِالْبُخُورِ فَقَطْ ثُمَّ بِالْعَزَائِمِ لِلْإِسْتِعْدَادِ، ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا أَدْرَكَ؛ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَرُونَ الصُّورَ مُتَشَخِّصَةً فِي الْهَوَاءِ تَحْكِي لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِدْرَاكِهِ بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ. وَغَيْبَةُ هَؤُلَاءِ عَنِ الْحِسِّ أَخْفُ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَالْعَالَمُ أَبُو الْغَرَائِبِ.

وَأَمَّا الرَّجَزُ وَهُوَ مَا يَخْدُثُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْغَيْبِ عِنْدَ سُنُوحِ^(١) طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ، وَالْفِكْرُ فِيهِ بَعْدَ مَغْيِبِهِ، وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ تَبْعَتْ عَلَى الْجِرْصِ وَالْفِكْرِ فِيمَا زَجَرَ فِيهِ مِنْ مَرْئِيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ. وَتَكُونُ قُوَّتُهُ الْمُخَيَّلَةُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَوِيَّةً؛ فَيَبْعَثُهَا فِي الْبَحْثِ مُسْتَعِينًا بِمَا رَأَاهُ أَوْ سَمِعَهُ؛ فَيُؤَدِّيهِ ذَلِكَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا، كَمَا تَفْعَلُهُ الْقُوَّةُ الْمُتَخَيَّلَةُ فِي النَّوْمِ وَعِنْدَ رُكُودِ الْحَوَاسِّ، إِذْ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْمَحْسُوسِ الْمَرْئِيِّ فِي يَقْظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ مَعَ مَا عَقَلَتْهُ فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا.

وَأَمَّا الْمَجَانِينُ فَنُفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ضَعِيفَةُ التَّعْلُقِ بِالْبَدَنِ، لِفَسَادِ أَمْرِجَتِهِمْ غَالِبًا وَضَعْفِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ فِيهَا، فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَعْرِقَةٍ فِي الْحَوَاسِ وَلَا مُنْعِمِسَةٍ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ النِّقْصِ وَمَرَضِهِ؛ وَرُبَّمَا زَاخَمَهَا عَلَى التَّعْلُقِ بِهِ رُوحَانِيَّةٌ أُخْرَى شَيْطَانِيَّةٌ تَشَبَّثَتْ بِهِ وَتَضَعُفُ هَذِهِ عَنْ مُمَانَعَتِهَا، فَيَكُونُ عَنْهُ التَّخَبُّطُ. فَإِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ التَّخَبُّطُ إِمَّا لِفَسَادِ مَزَاجِهِ مِنْ فُسَادٍ فِي ذَاتِهَا أَوْ لِمُزَاخَمَةٍ مِنَ النُّفُوسِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي تَعْلُقِهِ، غَابَ عَنْ جِسْمِهِ جُمْلَةً، فَأَذْرَكَ مِنْ عَالَمِ نَفْسِهِ وَانْطَبَعَ فِيهَا بَعْضُ الصُّوْرِ وَصَرَفَهَا الْخِيَالُ. وَرُبَّمَا نَطَقَ عَلَى لِسَانِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنْ غَيْرِ إِرَادَةِ النُّطْقِ.

وَإِذْرَاكَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَشُوبٌ فِيهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْصُلُ لَهُمُ الْاِتِّصَالُ وَإِنْ فَقَدُوا الْحِسَّ إِلَّا بَعْدَ الْاِسْتِعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ. وَمِنْ ذَلِكَ يَجِيءُ الْكَذِبُ فِي هَذِهِ الْمَدَارِكِ.

وَأَمَّا الْعَرَاوِفُونَ فَهَمُ الْمُتَعَلِّقُونَ بِهَذَا الْإِذْرَاكِ وَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ الْاِتِّصَالُ، فَيَسْلُطُونَ الْفِكَرَ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ، وَيَأْخُذُونَ فِيهِ بِالظُّلْمِ وَالتَّخْمِينِ بِنَاءً عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ مَبَادِي ذَلِكَ الْاِتِّصَالِ وَالْإِذْرَاكِ، وَيَدَّعُونَ بِذَلِكَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ، وَلَيْسَ مِنْهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

هَذَا تَخْصِيلُ هَذِهِ الْأُمُورِ. وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهَا الْمَشْعُودِيُّ فِي (مُرُوجِ الذَّهَبِ)، فَمَا صَادَفَ تَحْقِيقًا وَلَا إِصَابَةً. وَيُظْهَرُ مِنْ كَلَامِ الرَّجُلِ أَنَّهُ كَانَ بَعِيدًا عَنِ الرُّسُوحِ فِي الْمَعَارِفِ، فَيَثْقُلُ مَا سَمِعَ مِنْ أَهْلِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ.

وَهَذِهِ الْإِذْرَاكَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مَوْجُودَةٌ كُلُّهَا فِي نَوْعِ الْبَشَرِ. فَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يَفْزَعُونَ إِلَى الْكُفَّانِ فِي تَعْرِيفِ الْحَوَادِثِ وَيَتَنَافَرُونَ إِلَيْهِمْ فِي الْخُصُومَاتِ لِيَعْرِفُوهُمْ بِالْحَقِّ فِيهَا مِنْ إِذْرَاكِ غَيْبِهِمْ. وَفِي كُتُبِ أَهْلِ الْأَدَبِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ. وَاشْتَهَرَ مِنْهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ شَيْقُ بْنُ أُنْمَارِ بْنِ نِزَارٍ، وَسَطِيعُ بْنُ مَازِينَ بْنِ غَسَّانَ، وَكَانَ يُدْرَجُ^(١) كَمَا يُدْرَجُ الثَّوْبُ، وَلَا عَظْمَ فِيهِ إِلَّا الْجُمُجُمَةُ. وَمِنْ مَشْهُورِ الْحِكَايَاتِ عَنْهُمَا تَأْوِيلُ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ مُضَرَ، وَمَا أَخْبَرَاهُ بِهِ مِنْ مُلْكِ الْحَبَشَةِ لِلْيَمَنِ وَمُلْكِ مُضَرَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَظُهُورِ الثَّبُوءِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي قُرَيْشٍ، وَرُؤْيَا الْمُوَيْذَانِ^(٢) الَّتِي أَوْلَاهَا سَطِيعُ لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِ بِهَا كِشْرَى عَبْدَ الْمَسِيحِ فَأَخْبَرَهُ بِشَأْنِ الثَّبُوءِ وَخَرَابِ مُلْكِ فَارَسَ. وَهَذِهِ كُلُّهَا مَشْهُورَةٌ. وَكَذَلِكَ الْعَرَاوِفُونَ كَانَ فِي الْعَرَبِ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَذَكَرُوهُمْ فِي

(١) يُدرج : يطوى أو يلف .

(٢) المويذان : حاكمي الفرس ، وقد يكون وزير كسرى أنوشروان .

أشعارهم، قال:

فَقُلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ دَاوِنِي فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِي لَطَيْبٌ^(١)
قال الآخر :

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفِيَانِي
فَقَالَا شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَا لَنَا بِمَا حَمَلْتُ مِنْكَ الصُّلُوعَ يَدَانِ^(٢)
وعَرَّافُ الْيَمَامَةِ هُوَ رَبَاحُ بَنٍ عَجَلَةٍ؛ وَعَرَّافُ نَجْدٍ الْأَبْلَقُ الْأَسَدِيُّ .

ومن هذه المدارك الغيبية، ما يصدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ، عند مُفَارَقَةِ الْيَقَظَةِ وَالتَّبَاسِهِ بِالنُّومِ من الْكَلَامِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ، بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ. وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ إِلَّا فِي مَبَادِيِ النَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقَظَةِ وَذَهَابِ الْاِخْتِيَارِ فِي الْكَلَامِ؛ فَيَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ مَجْبُورٌ عَلَى التَّنَطُّقِ؛ وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْمَعَهُ وَيَفْهَمَهُ. وَكَذَلِكَ يَصْدُرُ عَنِ الْمَقْتُولِينَ عِنْدَ مُفَارَقَةِ رُؤُوسِهِمْ وَأَوْسَاطِ أَجْسَادِهِمْ كَلَامٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ. وَلَقَدْ بَلَّغْنَا عَنْ بَعْضِ الْجَبَابِرَةِ الظَّالِمِينَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ أَشْخَاصًا لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ الْقَتْلِ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَعْمَلُوهُمْ بِمَا يُسْتَبَشَعُ. وَذَكَرَ مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ «الْغَايَةِ» لَهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ، أَنَّ آدَمِيًّا إِذَا جُعِلَ فِي دَنْ^(٣) مَمْلُوءٍ بِذَهْنِ السُّمُسِمِ وَمَكَّتْ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُغْدَى بِالتَّيْنِ وَالْجُوزِ حَتَّى يَذْهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْعُرُوقُ وَشَوُّونُ رَأْسِهِ؛ فَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الدَّهْنِ؛ فَحِينَ يَجِفُّ عَلَيْهِ الْهَوَاءُ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ. وَهَذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاكِيرِ أَعْمَالِ السَّحَرَةِ لَكِنْ يُفْهَمُ مِنْهُ عَجَائِبُ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هَذَا الْمُدْرَكِ الْغَيْبِيِّ بِالرِّيَاضَةِ؛ فَيُحَاوِلُونَ بِالْمُجَاهَدَةِ مَوْتًا صِنَاعِيًّا بِإِمَامَةِ جَمِيعِ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ، ثُمَّ مَحْوِ آثَارِهَا الَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا النَّفْسُ، ثُمَّ تَغْذِيَّتُهَا بِالذِّكْرِ لِتَزْدَادَ قُوَّةً فِي نَشْئِهَا. وَيَحْصُلُ ذَلِكَ بِجَمْعِ الْفِكْرِ وَكَثْرَةِ الْجُوعِ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ ذَهَبَ الْحِسُّ وَحِجَابُهُ وَأُطْلِعَتِ النَّفْسُ عَلَى ذَاتِهَا وَعَالَمِهَا. فَيُحَاوِلُونَ ذَلِكَ بِالْاِكْتِسَابِ، لِيَقَعَ لَهُمْ قَبْلَ الْمَوْتِ مَا يَقَعُ لَهُمْ بَعْدَهُ، وَتُطْلِعُ النَّفْسُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّيَاضَةِ السَّحَرِيَّةِ يَهْتَاضُونَ بِذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ

(١) البيت من بحر الطويل، وهو لعروة بن حزام.

(٢) البيتان من بحر الطويل، وهما لعروة بن حزام أيضا.

(٣) دَنْ: وعاء.

في العوالم. وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً خصوصاً بلاد الهند. ويسمّون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة، والأخبار عنهم في ذلك غريبة.

وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعريّة^(١) عن هذه المقاصد المذمومة؛ وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكيفية ليحصل لهم أدواق أهل العرفان والتوحيد، ويريدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالذكر، فيها يتم وجهتهم في هذه الرياضة. لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله؛ وإذا غرّبت عن الذكر كانت شيطانية. وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصوداً من أول الأمر؛ لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله؛ وإنما هي لقصد التصرف والأطلاع على الغيب، وأخسر بها صفقة! فإنها في الحقيقة شرك. قال بعضهم: «من أثار العرفان للعرفان فقد قال بالثاني»^(٢). فهم يقصدون بوجهتهم المغبوء لا لشيء سواه. وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل بالعرض وغير مقصود لهم. وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يخل به؛ وإنما يريد الله لذاته لا لغيره. حصول ذلك لهم معروف. ويسمّون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشف، وما يقع لهم من التصرف كرامة؛ وليس شيء من ذلك بأكبر في حقهم. وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني^(٣) وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها. والمعمول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدّي فهو كاف. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن فيكم محدثين وإن منهم عمر». وقد وقع للصحابّة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر - رضي الله عنه - : «يا سارية! الجبل». وهو سارية بن زئيم، كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات، وتورط مع المشركين في معرك وهم بالانهزام، وكان يقربه جبل يتجهز إليه، فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه: «يا سارية! الجبل» وسمعه سارية وهو بمكانه، ورأى شخصه هنالك؛ والقصة معروفة. ووقع مثله أيضاً لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته - رضي الله عنهما - في شأن ما نحلها من أوسق^(٤) التمر من حديقته، ثم نبهها على جذاذه^(٥)

(١) عريّة : مجردة .

(٢) أي أشرك بالله ، بمعنى أن الله له ثان .

(٣) هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري ثم الإسفراييني، من أكابر حفاظ الحديث، طاف في الشام ومصر، والعراق، واليمن، وغيرهم في طلب الحديث، واستقر في أسفراين، فتوفي فيها سنة ٣١٦ هـ، ٩٢٨ م.

(٤) أوسق : مفرد ما وسق، وهو وزن سنين صاعاً أو حمل بعير .

(٥) جذاذه : حدود البستان .

لِتَحْزُرَهُ عَنِ الزَّوْرَةِ. فقال في سياق كلامه: «وإنما هما أخواك وأختاك» فقالت: «إنما هي أسماء فمن الأخرى؟» فقال: إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية»، فكانت جارية. وقَعَ في «الموطأ» في باب ما لا يجوز من النحل. ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء. إلا أن أهل التصوف يقولون إنه يقل في زمن النبوة، إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي؛ حتى إنهم يقولون إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يشلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها. والله يوزقنا الهداية، ويرشدنا إلى الحق.

فصل

ومن هؤلاء المريدن من المتصوفة قوم بهاليل^(١) مغتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء، وهم مع ذلك قد صححت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين، وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق، مع أنهم غير مكلفين. ويقع لهم من الإخبار عن المعانيات عجائب؛ لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب. ورؤيا ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يزرون من سقوط التكليف عنهم؛ والولاية لا تحصل إلا بالعبادة، وهو غلط؛ فإن فضل الله يؤتبه من يشاء؛ ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها. وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه. وهؤلاء القوم لم تعد نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين؛ وإنما فقد لهم العقل الذي يباط به التكليف، وهي صفة خاصة للنفس، وهي علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامته منزله. وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامته منزله لم يبق له عذر في قبول التكليف لإصلاح معاده. وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته؛ فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش؛ ولا استحالة في ذلك؛ ولا يتوقف اضطفاء الله عبادته للمعرفة على شيء من التكليف. وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتجسون بالبهائم. ولك في تمييزهم علامات، منها أن هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما، لا يجلون عنها أصلاً من ذكر وعبادة، لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم

(١) بهاليل: مفردا بهلول، وهو السيد الذكي الجامع لكل خير، وقد استعملها ابن خلدون بمعنى المغتوه كاستعمال العامة

لها على سبيل السخرية.

التكليف؛ والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلاً. ومنها أنهم يُخلَقون على البَلَه من أول نشأتهم، والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مُدَّة من العمر لعوارض بدنيَّة طَبِيعِيَّة، فإذا عَرَضَ لهم ذلك وفسدت نفوسهم التَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالْحَيَّة. ومنها كثيرة تَصَرَّفُفِهِمْ فِي النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ لَأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى إِذْنِ لِعَدَمِ التَّكْلِيفِ فِي حَقِّهِمْ؛ والمجانين لا تَصَرَّفُ لَهُمْ. وهذا فصل انتهى بنا الكلام إليه؛ واللَّهُ المرشِدُ للصَّواب.

فصل

وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَا مَدَارِكَ لِلْغَيْبِ، مِنْ دُونِ غَيْبَةِ عَنِ الْحِسِّ، فَمِنْهُمْ الْمُتَنَجِّمُونَ الْقَائِلُونَ بِالذَّلَالَاتِ التَّجْوِمِيَّةِ وَمُقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي الْقَلْبِ، وَأَثَارِهَا فِي الْعُنَاصِرِ، وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْإِمْتِزَاجِ بَيْنَ طَبَائِعِهَا بِالتَّنَاطُرِ، وَيَتَأَدَّى مِنْ ذَلِكَ الْمِزَاجِ إِلَى الْهَوَاءِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُتَنَجِّمُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ؛ إِنَّمَا هِيَ ظَنُونٌ حَدْسِيَّةٌ وَتَخْمِينَاتٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّأثيرِ التَّجْوِمِيَّةِ وَحَصُولِ الْمِزَاجِ مِنْهُ لِلْهَوَاءِ مَعَ مَزِيدٍ حَدْسٍ يَقِفُ بِهِ التَّنَاطُرُ عَلَى تَفْصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْعَالَمِ كَمَا قَالَ بَطْلِيمُوسُ. وَنَحْنُ نَبِينُ بُطْلَانَ ذَلِكَ فِي مُحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَهُوَ لَوْ ثَبَتَ فَعَايَنَهُ حَدْسٌ وَتَخْمِينٌ وَلَيْسَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَّةِ اسْتَنْبَطُوا لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ وَتَعَرَّفُوا الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةَ سَمُوحَا خَطِّ الرَّمْلِ نِسْبَةً إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا عَمَلَهُمْ. وَمَحْصُولُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّهُمْ صَبَّرُوا مِنَ الثَّقَلِ أَشْكَالاً ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبٍ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الزَّوْجِيَّةِ وَالْفَرْدِيَّةِ وَاسْتَوَائِهَا فِيهِمَا، فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا؛ لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ أَرْوَاجًا كُلُّهَا أَوْ أَفْرَادًا كُلُّهَا فَشَكْلَانِ؛ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِيهِمَا فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ؛ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ فِسِتَّةُ أَشْكَالٍ؛ وَإِنْ كَانَ فِي ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ. جَاءَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا مَيَّروها كُلُّهَا بِأَسْمَائِهَا وَأَنْوَاعِهَا إِلَى سُعُودٍ وَنُحُوسٍ شَأْنِ الْكَوَاكِبِ، وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةَ عَشَرَ نِسْبَةً طَبِيعِيَّةً بِزَعْمِهِمْ، وَكَانَتْهَا الْبُرُوجُ الْاِثْنَا عَشَرَ الَّتِي لِلْقَلْبِ وَالْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةُ، وَجَعَلُوا لِكُلِّ شَكْلِ مِنْهَا نِسْبَةً وَخُطُوطًا وَذَلَالَةً عَلَى صَنْفٍ مِنْ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ الْعُنَاصِرِ يَخْتَصُّ بِهِ، وَاسْتَنْبَطُوا مِنْ ذَلِكَ قَنَّا حَادُوا بِهِ قَنَ النُّجَامَةِ^(١) وَنَوْعَ قَضَائِهِ. إِلَّا أَنَّ أَحْكَامَ النُّجَامَةِ مُسْتَنَدَةٌ إِلَى أَوْضَاعِ طَبِيعِيَّةٍ كَمَا

(١) فن النجامة : علم التنجيم .

زعم بطليموس، وهذه إنما مستندها أوضاع تحكيميّة وأهواء اتّفاقيّة، ولا دليل يقوم على شيء منها. ويَزعَمون أن أصل ذلك من الثبوتات القديمة في العالم، وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس - صلوات الله عليهما -، شأن الصنائع كلها. ورُبّما يدعون مشروعيتها ويَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ ﷺ: «كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ، فَمَنْ وَافَقَ خَطُّهُ فَذَلِكَ»^(١). وليس في الحديث دليل على مشروعية خط الرَّمَلِ كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه؛ لأن معنى الحديث كان نبي يخط فيأتيه الوحي عند ذلك الخط، ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء، فمن وافق خطّه ذلك النبي فهو ذاك، أي فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط. وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجرّداً من غير موافقة وحي فلا. وهذا معنى الحديث. والله أعلم. فإذا أرادوا استخراج مغيب يزعمهم عمدوا إلى قِزطاس أو رمل أو دقيق فَوَضَعُوا الثَّقَطَ سَطُورًا على عَدَدِ المراتب الأربع، ثم كَتَبُوا ذلك أربعَ مراتب فتجيء ستة عشر سطراً. ثم يَطْرَحُونَ الثَّقَطَ أَرْوَاجًا وَيَضَعُونَ ما بقي من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبته على الترتيب، فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطر مُتتالِيَةٍ؛ ثم يُولَدُونَ منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باختيار كل مرتبة وما قبلها من الشكل الذي يَازِيهِ؛ وما يَجْتَمِعُ منهما من زوج أو فرد، فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر؛ ثم يُولَدُونَ من كل شكلين شكلاً تحتها باختيار ما يَجْتَمِعُ في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها؛ ثم يُولَدُونَ من الأربعة شكلين كذلك تحتها؛ ثم من الشكلين شكلاً كذلك تحتها؛ ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلاً يكون آخر السنته عشر. ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من الشعودة والتحوسة بالذات، والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكما غريباً. وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التأليف واشتهرت فيها الأغلام من المتقدمين والمتأخرين، وهي كما رأيت تحكمت وهوى. والتحقق الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المَفْطُورِينَ على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح. ولذلك يسمي المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهرتين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة يزعمهم في أصل مواليدهم على إدراك الغيب. فالخط وغيره من هذه إن كان التاظر فيه من أهل هذه الخاصية

(١) مسلم في المساجد رقم (٥٣٧).

وقصد بهذه الأمور التي ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها أشغال الحس ليرجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما، فهو من باب الطرق بالخصى والتظير في قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه. وإن لم يكن كذلك، وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيده ذلك فهدر من القول والعمل. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [التور: ٤٦]. والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبي أنهم عند توجيههم إلى تعرف الكائنات يعترفهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتأوب والتمطيط^(١) ومبادئ الغيبة عن الحس، ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم. فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب في شيء وإنما هو ساع في تنفيق^(٢) كذبه.

فصل

ومنهم طوائف يصنعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذي هو من مدارك النفس الروحانية، ولا من الحدس المبني على تأثيرات الشجوم كما زعمه بطليموس، ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون؛ وإنما هي مغالط يجعلونها كالمصائد لأهل العقول المستضعفة. ولست أذكر من ذلك إلا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص. فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمونه حساب النيم وهو مذكور في آخر كتاب «السياسة» المنسوب لأرسطو، يعرف به الغالب من المغلوب في المتحارين من الملوك. وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحساب الجمل المضطلع عليه في حروف أبجد من الواحد إلى الألف آحادا وعشرات ومئين وألوفاً. فإذا حسبت الاسم وتوصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك. ثم اطرخ من كل واحد منهما تسعة تسعة، واحفظ بقية هذا وبقية هذا. ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين: فإن كان العددان مختلفين في الكمية وكانا معاً زوجين أو فردين معاً فصاحب الأقل منهما هو الغالب؛ وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً فصاحب الأكثر هو الغالب؛ وإن كانا متساويين في الكمية وهما معاً زوجان فالمطلوب هو الغالب؛ وإن كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب. ويقال هنالك بيتان في هذا العمل اشتراها بين الناس، وهما:

(٢) تنفيق: ترويج.

(١) التمطط: التمدد.

أرى الزَّوْجَ وَالْأَفْرَادَ يَسْمَوْنَ أَقْلُهَا وَأَكْثَرُهَا عِنْدَ التَّخَالُفِ غَالِبٌ
وَيَغْلِبُ مَطْلُوبٌ إِذَا الزَّوْجُ يَسْتَوِي وَعِنْدَ اسْتِواءِ الْفَرْدِ يَغْلِبُ طَالِبٌ^(١)
ثم وَضَعُوا لِمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الْحُرُوفِ بَعْدَ طَرَجِهَا بِتَشْعِيقِ قَانُونًا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فِي طَرَحِ
تَسْعَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْحُرُوفَ الدَّالَّةَ عَلَى الْوَاحِدِ فِي الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ وَهِيَ :

(أ) الدَّالَّةُ عَلَى الْوَاحِدِ .

و(ي) الدَّالَّةُ عَلَى الْعَشْرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْعَشْرَاتِ .

و(ق) الدَّالَّةُ عَلَى الْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْمِائِينَ .

و(ش) الدَّالَّةُ عَلَى الْأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْأَلْفِ . وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَلْفِ عَدَدٌ يُدَلُّ عَلَيْهِ
بِالْحُرُوفِ، لِأَنَّ الشَّيْنَ آخِرُ حُرُوفِ أَبْجَدٍ . ثُمَّ رَتَّبُوا هَذِهِ الْأَحْرُوفَ الْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ
فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ (أَيْقَش) . ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ
الثَّلَاثِ وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ الْأَلْفِ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أَبْجَدٍ، فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ
الْاثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ : وَهِيَ (ب) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْآحَادِ وَ(ك) الدَّالَّةُ
عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْعَشْرَاتِ وَهِيَ عَشْرُونَ وَ(ر) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمِائِينَ وَهِيَ مِائَتَانِ؛ وَصَيَّرُوهَا
كَلِمَةً وَاحِدَةً ثَلَاثِيَّةً عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ وَهِيَ (بَكَر) . ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ
فَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةٌ (جَلَسَ) . وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ أَبْجَدٍ . وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَاتٍ نَهَائِيَّةً
عَدَدِ الْآحَادِ (وَهِيَ : أَيْقَش، بَكَر، جَلَسَ، دَمَتَ، هَنَتَ، وَصَخَ، زَعَدَ، حَفِظَ، طَضَعَ) . مُرْتَبَةً
عَلَى تَوَالِي الْأَعْدَادِ، وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدْدُهَا الَّذِي هِيَ فِي مَرْتَبَتِهَا؛ فَالْوَاحِدُ لِكَلِمَةِ أَيْقَشَ؛
وَالْاثْنَانِ لِكَلِمَةِ بَكَرَ؛ وَالثَّلَاثَةُ لِكَلِمَةِ جَلَسَ؛ وَكَذَلِكَ إِلَى التَّاسِعَةِ الَّتِي هِيَ طَضَعَ، فَتَكُونُ لَهَا
التَّسْعَةُ . فَإِذَا أَرَادُوا طَرَحَ الْأِسْمِ بِتَشْعِيقِ نَظَرُوا كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ فِي أَيِّ كَلِمَةٍ هُوَ مِنْ هَذِهِ
الْكَلِمَاتِ؛ وَأَخَذُوا عَدْدَهَا مَكَانَهُ، ثُمَّ جَمَعُوا الْأَعْدَادَ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بَدَلًا مِنْ حُرُوفِ الْأِسْمِ،
فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى التَّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ عَنْهَا، وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا هُوَ، ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذَلِكَ
بِالْأِسْمِ الْآخَرِ وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ الْخَارِجِينَ بِمَا قَدَّمَاهُ . وَالسِّرُّ فِي هَذَا الْقَانُونِ بَيِّنٌ . وَذَلِكَ أَنَّ الْبَاقِيَّ
مِنْ كُلِّ عَقْدٍ مِنْ عُقُودِ الْأَعْدَادِ بِطَرَحِ تَشْعِيقٍ إِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ؛ فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عِدَدَ الْعُقُودِ خَاصَّةً
مِنْ كُلِّ مَرْتَبَةٍ؛ فَصَارَتْ أَعْدَادُ الْعُقُودِ كَأَنَّهَا آحَادٌ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْاثْنَيْنِ وَالْعِشْرِينَ وَالْمِائَتَيْنِ

(١) البيتان من بحر الطويل .

وَالْأَلْفَيْنِ وَكُلُّهَا اثْنَانِ؛ وَكَذَلِكَ الثَّلَاثَةُ وَالثَّلَاثُونَ وَالثَّلَاثُمِائَةُ وَالثَّلَاثَةُ الْآلَافِ كُلُّهَا ثَلَاثَةُ ثَلَاثَةٍ. فَوُضِعَتِ الْأَعْدَادُ عَلَى التَّوَالِي دَالَّةٌ عَلَى أَعْدَادِ الْعُقُودِ لَا غَيْرُ؛ وَجُعِلَتِ الْحُرُوفُ الدَّالَّةُ عَلَى أَصْنَافِ الْعُقُودِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْآحَادِ وَالْعَشْرَاتِ وَالْمِائِينَ وَالْأُلُوفِ، وَصَارَ عَدَدُ الْكَلِمَةِ الْمَوْضُوعُ عَلَيْهَا نَائِبًا عَنْ كُلِّ حَرْفٍ فِيهِ سَوَاءٌ ذَلَّ عَلَى الْآحَادِ أَوِ الْعَشْرَاتِ أَوِ الْمِائِينَ؛ فَيُؤْخَذُ عَدَدُ كُلِّ كَلِمَةٍ عَوَضًا عَنْ الْحُرُوفِ الَّتِي فِيهَا؛ وَتُجْمَعُ كُلُّهَا إِلَى آخِرِهَا كَمَا قُلْنَا. هَذَا هُوَ الْعَمَلُ الْمُتَدَاوِلُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْذُ الْأَمْرِ الْقَدِيمِ. وَكَانَ بَعْضُ مَنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا يَرَى أَنَّ الصَّحِيحَ فِيهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى تَسَعَةً مَكَانَ هَذِهِ وَمُتَوَالِيَةً كَتَوَالِيهَا، وَيَفْعَلُونَ بِهَا فِي الطَّرْحِ بَيْتَسَعَةً مِثْلَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سَوَاءً؛ وَهِيَ هَذِهِ: أَرْبَ، يَسْقُكُ، جَزَلَطُ، مَدُوصُ، هَفُ، تَحْذَنُ، عَشُ، خَعُ، تَضْظُ؛ تَسَعُ كَلِمَاتٌ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ، وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِي فِي مَرْتَبَتِهِ، فِيهَا الثَّلَاثِيُّ وَالرُّبَاعِيُّ وَالثَّنَائِيُّ. وَلَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى أَصْلٍ مُطَرَّبٍ كَمَا تَرَاهُ. لَكِنْ كَانَ شُيُوخُنَا يَقُولُونَهَا عَنْ شَيْخِ الْمَغْرِبِ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ مِنَ السِّمِّيَاءِ^(١) وَأَشْرَارِ الْحُرُوفِ وَالتَّجَامَةِ وَهُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ الْبَنَاءِ، وَيَقُولُونَ عَنْهُ إِنَّ الْعَمَلَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي طَرَحِ حِسَابِ النِّيمِ أَصَحُّ مِنَ الْعَمَلِ بِكَلِمَاتِ أَيْقَشَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَيْفَ ذَلِكَ.

وهذه كلها مدارك للغيب غير مُسْتَنَدَةٍ إِلَى بُرْهَانٍ وَلَا تَحْقِيقٍ. وَالْكِتَابُ الَّذِي وَجَدَ فِيهِ حِسَابُ النِّيمِ غَيْرُ مَعْرُوفٍ إِلَى أَرِسْطُو عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ لَمَّا فِيهِ مِنَ الْآرَاءِ الْبَعِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ وَالْبُرْهَانِ؛ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ تَصَفُّحُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الرَّسُوحِ. ١٥.

وَمِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الصَّنَاعِيَّةِ لَا سِتِّخْرَاجِ الْغُيُوبِ فِيمَا يَرَعَمُونَ الزَّايِرَةَ^(٢) الْمُسَمَّاءُ «بَزَايِرِجَةِ الْعَالَمِ» الْمَعْرُوفَةِ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ الشَّيْبِيِّ مِنْ أَعْلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ بِالْمَغْرِبِ، كَانَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ بِمَرَاكُشَ وَلِعَهْدِ أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ مِنْ مُلُوكِ الْمُوحِدِينَ. وَهِيَ غَرِيبَةُ الْعَمَلِ صِنَاعَةٌ. وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِّ يُولَعُونَ بِإِفَادَةِ الْغَيْبِ مِنْهَا بِعَمَلِهَا الْمَعْرُوفِ الْمَلْفُوزِ^(٣)؛ فَيَحَرِّضُونَ بِذَلِكَ عَلَى حَلِّ رَمْزِهِ وَكَشْفِ غَامِضِهِ. وَصَوَّرْتُهَا الَّتِي يَقَعُ الْعَمَلُ عَنْدهُمْ فِيهَا دَائِرَةً عَظِيمَةً فِي دَاخِلِهَا دَوَائِرٌ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاقِ وَالْعُنَاصِرِ وَالْمُكُونَاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ وَالْعُلُومِ. وَكُلُّ دَائِرَةٍ مَقْسُومَةٌ بِأَقْسَامٍ فَلِكُلِّهَا: إِمَّا الْبُرُوجُ وَإِمَّا الْعُنَاصِرُ أَوْ غَيْرُهَا. وَخُطُوطُ كُلِّ قِسْمٍ مَارَّةٌ إِلَى الْمَرْكَزِ وَيُسَمُّونَهَا الْأَوْتَارَ. وَعَلَى كُلِّ وَتَرٍ حُرُوفٌ مُتَتَابِعَةٌ

(١) السِّمِّيَاءُ: علم السحر، وقد يطلق على علم الكيمياء.

(٢) الزَّايِرَةُ: اللاتحة تكتب عليها النظورات المتعلقة بأحوال النفس.

(٣) المَلْفُوزُ: المهم.

مَوْضُوعَةٌ، فَمِنْهَا بِرُشُومٌ^(١) الزَّمَامُ الَّتِي هِيَ أَشْكَالُ الْأَعْدَادِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوَاوِينِ وَالْجِسَابِ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَمِنْهَا بِرُشُومُ الْعُبَارِ الْمُتَعَارَفَةِ فِي دَاخِلِ الزَّايِرَجَةِ. وَبَيْنَ الدَّوَاوِينِ أَشْمَاءُ الْعُلُومِ وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ. وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَاوِينِ جَذُولٌ مُتَكَثِّرُ الْبُيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ طَوْلًا وَعَرْضًا يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِي الْعَرْضِ، وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي الطَّوْلِ، جَوَانِبُ مِنْهُ مَعْمُورَةُ الْبُيُوتِ تَارَةً بِالْعَدَدِ وَأُخْرَى بِالْحُرُوفِ، وَجَوَانِبُ خَالِيَةُ الْبُيُوتِ. وَلَا تُعْلَمُ نِسْبَةُ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا الْقِسْمَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ الْبُيُوتَ الْعَامِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ. وَحَافَاتُ الزَّايِرَجَةِ آيَاتٌ مِنْ غُرُوضِ الطَّوِيلِ عَلَى زَوِيِّ اللَّامِ الْمَنْصُوبَةِ تَتَضَمَّنُ صُورَةَ الْعَمَلِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّايِرَجَةِ. إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْأَلْعَازِ فِي عَدَمِ الْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ. وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّايِرَجَةِ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ مَنَسُوبٌ لِبَعْضِ أَكَابِرِ أَهْلِ الْجَدِثَانِ بِالْمَغْرِبِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ وَهَبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْبِيلِيَّةٍ كَانَ فِي الدَّوْلَةِ اللَّمْتُونِيَّةِ وَنَصَّ الْبَيْتَ :

سُؤَالَ عَظِيمِ الْخَلْقِ حُزَتْ فَضْنُ إِذَنْ غَرَائِبُ شَكِّ ضَبْطُهُ الْجِدْ مَثَلًا^(٢)

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايِرَجَةِ وغيرها. فَإِذَا أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ الْجَوَابِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنَ الْمَسَائِلِ كَتَبُوا ذَلِكَ السُّؤَالَ وَقَطَّعُوهُ حُرُوفًا، ثُمَّ أَخَذُوا الطَّالِعَ لِذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ بُرُوجِ الْفَلَكَ وَدَرَجَاتِهَا، وَعَمَدُوا إِلَى الزَّايِرَجَةِ ثُمَّ إِلَى الْوَتْرِ الْمُكْتَنَفِ فِيهَا بِالْبُرْجِ الطَّالِعِ مِنْ أَوَّلِهِ مَا رَأَى إِلَى الْمَرْكَزِ، ثُمَّ إِلَى مُحِيطِ الدَّائِرَةِ قِبَالَةَ الطَّالِعِ. فَيَأْخُذُونَ جَمِيعَ الْحُرُوفِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، وَالْأَعْدَادِ الْمَرْسُومَةِ بَيْنَهُمَا، وَيُصَيِّرُونَهَا حُرُوفًا بِحِسَابِ الْجُمْلِ. وَقَدْ يَنْقُلُونَ أَحَادَهَا إِلَى الْعَشَرَاتِ وَعَشَرَاتِهَا إِلَى الْمِائِينَ وَبِالْعَكْسِ فِيهِمَا كَمَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ الْعَمَلِ عَنْدهم. وَيَضَعُونَهَا مَعَ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَيُضَيِّفُونَ إِلَى ذَلِكَ جَمِيعَ مَا عَلَى الْوَتْرِ الْمُكْتَنَفِ بِالْبُرْجِ الثَّالِثِ مِنَ الطَّالِعِ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى الْمَرْكَزِ فَقَطْ لَا يَتَجَاوِزُونَهُ إِلَى الْمُحِيطِ. وَيَقْلَعُونَ بِالْأَعْدَادِ مَا قَلَعُوهُ بِالْأَوَّلِ وَيُضَيِّفُونَهَا إِلَى الْحُرُوفِ الْأُخْرَى. ثُمَّ يَقْلَعُونَ حُرُوفَ الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعَمَلِ وَقَانُونُهُ عَنْدهم، وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ بْنِ وَهَبٍ الْمُتَقَدِّمِ، وَيَضَعُونَهَا نَاجِيَةً؛ ثُمَّ يَضْرِبُونَ عَدَدَ دَرَجِ الطَّالِعِ فِي أَسِّ الْبُرْجِ. وَأَشُّهُ عَنْدهم هُوَ بُعْدُ الْبُرْجِ عَنْ آخِرِ الْمَرَاتِبِ عَكْسَ مَا عَلَيْهِ الْأُسُّ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْجِسَابِ؛ فَإِنَّهُ عَنْدهم الْبُعْدُ عَنْ أَوَّلِ الْمَرَاتِبِ. ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ فِي عَدَدِ آخِرِ يُسَمُّونَهُ الْأُسَّ

(١) رشوم : جمع رسم ، والرشم : الكتابة والشكل .

(٢) البيت من بحر الطويل .

الأكبر والدور الأصلي. ويُدخلون بما تجمع لهم من ذلك في ثبوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة. ويستخرجون منها حروفاً ويسقطون أخرى. ويقابلون بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال، وما معها؛ ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يُسمونها الأدوار؛ ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور، يُعاودون ذلك بعد الأدوار المعينة عندهم لذلك؛ فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل وزاوية وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم حسبما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزاوية.

وقد رأينا كثيراً من الخواص يتهافون على استخراج الغيب منها بتلك الأعمال ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع. وليس ذلك بصحيح؛ لأنه قد مرّ لك أن الغيب لا يُذكر بأمر صناعي البتة؛ وإنما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الأفهام والتوافق في الخطاب حتى يكون الجواب مستقيماً أو موافقاً للسؤال. ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار. والدخول في الجدول بالأعداد المجتمعة من ضرب الأعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك في الأدوار المعدودة، ومقابلته ذلك كله بحروف البيت على التوالي، غير مستحكر. وقد يقع الاطلاع من بعض الأذكياء على تناسب بين هذه الأشياء فيقع له معرفة المجهول. فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس، وطريق لحصوله، ولا سيما من أهل الرياضة، فإنها تُفيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر. وقد مرّ تغليل ذلك غير مرة.

ومن أجل هذا المعنى يُسبون هذه الزاوية في الغالب لأهل الرياضة؛ فهي منسوبة للسببي. ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله. ولعمري إنها من الأعمال الغريبة والمعانة العجيبة، والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوماً يظهر لي إنما هو المقابلة بحروف ذلك البيت. ولهذا يكون التظم على وزنه وزاوية. ويدل عليه أننا وجدنا أعمالاً أخرى لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوماً كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه. وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذِهِ إلى المطلوب، فينكرو صحتها ويحسب أنها من التخيلات والإيهامات، وأن صاحب العمل بها

يُثَبِّتُ حُرُوفَ الْبَيْتِ الَّذِي يَنْظُمُهُ كَمَا يَرِيدُ بَيْنَ أَثْنَاءِ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ، وَيَفْعَلُ تِلْكَ الصَّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونٍ، ثُمَّ يَجِيءُ بِالْبَيْتِ وَيُوهِمُ أَنَّ الْعَمَلَ جَاءَ عَلَى طَرِيقَةٍ مُنْضَبِطَةٍ. وَهَذَا الْحِسَابُ تَوَهُّمٌ فَاسِدٌ حَمَلَ عَلَيْهِ الْقُصُورُ مِنْ فَهْمِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَدَارِكِ وَالْعُقُولِ. وَلَكِنَّ مِنْ شَأْنِ كُلِّ مُدْرِكٍ إِنْكَارَ مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِ إِذْرَاكُهُ. وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذَلِكَ مُشَاهَدَةُ الْعَمَلِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَالْحَدْسُ الْقَطْعِيُّ؛ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَرِّدٍ وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مِرْيَةَ فِيهِ عِنْدَ مَنْ يُبَاشِرُ ذَلِكَ مِمَّنْ لَهُ ذِكَاةٌ وَحَدْسٌ. وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعَايَاةِ فِي الْعَدَدِ الَّذِي هُوَ أَوْضَحُ الْوَاضِحَاتِ يَعْسُرُ عَلَى الْفَهْمِ إِذْرَاكُهُ لِبَعْدِ الشَّكِّ فِيهِ وَخَفَائِهَا، فَمَا ظَنُّكَ بِمِثْلِ هَذَا مَعَ خَفَاءِ الشَّكِّ فِيهِ وَغَرَائِبِهَا. فَلَنَذْكُرْ مَسْأَلَةً مِنَ الْمُعَايَاةِ يَتَضَحُّ لَكَ بِهَا شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْنَا. مِثَالُهُ: لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عَدَدًا مِنَ الدَّرَاهِمِ وَاجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً مِنَ الْفُلُوسِ؛ ثُمَّ اجْمَعْ الْفُلُوسَ الَّتِي أُخِذَتْ وَاشْتَرِ بِهَا طَائِرًا؛ ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ كُلَّهَا طَيْرًا بِسَعْرِ ذَلِكَ الطَّائِرِ؛ فَكَمْ الطَّيْرُ الْمُشْتَرَاةُ بِالدَّرَاهِمِ وَالْفُلُوسِ؟ فَجَوَابُهُ أَنْ تَقُولَ هِيَ تِسْعَةٌ. لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ فُلُوسَ الدَّرَاهِمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ؛ وَأَنَّ الثَّلَاثَةَ تُثْنِيهَا وَأَنَّ عِدَّةَ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ ثَمَانِيَّةٌ، فَإِذَا جُمِعَتِ الثَّمَنُ مِنَ الدَّرَاهِمِ إِلَى الثَّمَنِ الْآخِرِ فَكَانَ كُلُّهُ ثَمَنَ طَائِرٍ فَهِيَ ثَمَانِيَّةُ طَيْرٍ عِدَّةُ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ، وَتَزِيدُ عَلَى الثَّمَانِيَّةِ طَائِرًا آخَرَ وَهُوَ الْمُشْتَرَى بِالْفُلُوسِ الْمَأْخُودَةِ أَوَّلًا، وَعَلَى سَعْرِهِ اشْتَرَيْتِ بِالدَّرَاهِمِ؛ فَتَكُونُ تِسْعَةٌ. فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ خَرَجَ لَكَ الْجَوَابُ الْمُضْمَرُ بِسِرِّ التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَ أَعْدَادِ الْمَسْأَلَةِ. وَالْوَهْمُ أَوَّلُ مَا يُلْقَى إِلَيْكَ هَذِهِ وَأَمْثَالُهَا إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ. وَظَهَرَ أَنَّ التَّنَاسُبَ بَيْنَ الْأُمُورِ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ مَجْهُولَهَا مِنْ مَعْلُومِهَا. وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي الْوَاقِعَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي الْوُجُودِ أَوِ الْعِلْمِ. وَأَمَّا الْكَائِنَاتُ الْمُسْتَقْبَلَةُ إِذَا لَمْ تُعْلَمْ أَسْبَابُ وَقُوعِهَا وَلَا يَثْبُتَ لَهَا خَبَرٌ صَادِقٌ عَنْهَا فَهُوَ غَيْبٌ لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ. وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ فَلَا أَعْمَالَ الْوَاقِعَةِ فِي الزَّائِرَةِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ أَلْفَاظِ السُّؤَالِ؛ لِأَنَّهَا كَمَا رَأَيْتَ اسْتِثْبَاتُ حُرُوفٍ عَلَى تَرْتِيبٍ مِنْ تِلْكَ الْحُرُوفِ يَعْنِيهَا عَلَى تَرْتِيبٍ آخَرَ. وَسِرُّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَنَاسُبِ يَنْتَهِيهِمَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ. فَمَنْ عَرَفَ ذَلِكَ التَّنَاسُبَ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ اسْتِخْرَاجُ ذَلِكَ الْجَوَابِ بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ. وَالْجَوَابُ يَدُلُّ فِي مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعُ أَلْفَاظِهِ وَتَرَاكِبِيهِ عَلَى وَقُوعِ أَحَدِ طَرَفِي السُّؤَالِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ. وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ؛ بَلْ إِنَّمَا يَوْجَعُ لِمُطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمَا فِي الْخَارِجِ. وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ بَلِ الْبَشَرُ مُحْجُوبُونَ عَنْهُ؛ وَقَدْ اسْتَأْثَرَهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].